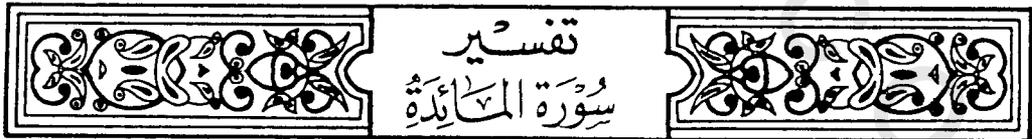


﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ أي عن الكلاله . والكلالة مأخوذة من الإكليل الذي يحيط بالرأس من جوانبه ، ولهذا فسرها أكثر العلماء بمن يموت وليس له ولد ولا والد، ومن الناس من يقول: الكلاله: من لا ولد له كما دلت عليه هذه الآية ﴿إِنْ أَمْرُؤُا هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَوَلَدٌ﴾ وقد أشكل حكم الكلاله على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه كما ثبت في الصحيحين أنه قال: ثلاث وددت أن رسول الله ﷺ كان عهد إلينا فيهن عهداً تنتهي إليه: الجد، والكلالة، وباب من أبواب الربا. ﴿إِنْ أَمْرُؤُا هَلَكَ﴾ أي مات، قال تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: 88] وقوله ﴿لَيْسَ لَهُ وَوَلَدٌ﴾ تمسك به من ذهب إلى أنه ليس من شرط الكلاله انتفاء الوالد، بل يكفي في وجود الكلاله انتفاء الولد، ولكنه الذي يرجع إليه هو قول الجمهور وقضاء الصديق أنه الذي لا ولد له ولا والد . ويدل على ذلك قوله: ﴿وَوَلَدٌ أَخْتٌ فَلَهَا يَصْفُ مَا تَرَكَ﴾ ولو كان معها أب لم ترث شيئاً، لأنه يحجبها بالإجماع فدل على أنه من لا ولد له بنص القرآن، ولا والد له بالنص عند التأمل أيضاً، لأن الأخت لا يفرض لها النصف مع الوالد، بل ليس لها ميراث بالكلية. وقوله: ﴿وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَوَلَدٌ﴾ أي والأخ يرث جميع مالها إذا ماتت كلاله، وليس لها ولد أي ولا والد، لأنه لو كان لها والد لم يرث الأخ شيئاً، فإن فرض. أن معه من له فرض صرف إليه فرضه، كزوج، أو أخ من أم وصرف الباقي إلى الأخ، لما ثبت في الصحيحين «الحقوا الفرائض بأهلها فما أبقت الفرائض فالأولى رجل ذكر» وقوله: ﴿فَإِنْ كَانَتْ أُمَّتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ﴾ أي فإن كان لمن يموت كلاله أختان فرض لهما الثلثان، وكذا ما زاد على الأختين في حكمهما، ومن هنا أخذ الجماعة حكم البنتين، كما استفيد حكم الأخوات من البنات في قوله: ﴿فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ أُمَّتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾ وقوله: ﴿وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً...﴾ هذا حكم الصبيان من البنين وبنين البنين والأخوة إذا اجتمع ذكورهم وإناثهم أعطي الذكر مثل حظ الأنثيين. وقوله: ﴿بَيْنَ اللَّهِ لَكُمْ﴾ أي يفرض لكم فرائضه ويحد لكم حدوده ويوضح لكم شرائعه، وقوله ﴿أَنْ تَضِلُّوا﴾ أي لئلا تضلوا عن الحق بعد البيان ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي هو عالم بعواقب الأمور ومصالحها وما فيها من الخير لعباده وما يستحقه كل واحد من القرابات بحسب قربه من المتوفى .



روى الإمام أحمد عن أسماء بنت يزيد قالت: إني لأخذة بزمام العضباء: ناقة رسول الله ﷺ إذ نزلت عليه المائدة كلها، وكادت من ثقلها تدق عضد الناقة. وعن جبير بن نغير قال: حججت فدخلت على عائشة، فقالت لي: يا جبير، تقرأ المائدة؟ فقلت: نعم، فقالت: أما إنها آخر سورة نزلت، فما وجدتم فيها من حلال فاستحلوه، وما وجدتم فيها من حرام فحرموه، قال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه .

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَيْعَةُ الْاِنْعَامِ اِلَّا مَا يَتَنَلَّ عَلَيْكُمْ عِيْرَ مِحْلِي الصَّيْدِ وَاَنْتُمْ حُرْمٌ اِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيْدُ ﴿١﴾﴾ .

أتى رجل عبد الله بن مسعود فقال: اعهد إلي، فقال: إذا سمعت الله يقول: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ فأرعهما سمعك، فإنه خير يأمر به، أو شر ينهى عنه. وقوله ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ يعني العهود، يعني ما أحل الله وما حرم، وما فرض وما حد في القرآن كله، ولا تقدرُوا ولا تنكثُوا، قال زيد بن أسلم: هي ستة، عهد الله، وعقد الحلف، وعقد الشركة، وعقد البيع، وعقد النكاح، وعقد اليمين. وقد استبدل بعض من ذهب إلى أنه لا خيار في مجلس البيع بهذه الآية ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ قال: فهذا يدل على لزوم العقد وثبوته، ويقضي نفي خيار المجلس، وهذا مذهب أبي حنيفة ومالك، وخالفهما في ذلك الشافعي وأحمد والجمهور، والحجة في ذلك ما ثبت في الصحيحين عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «البيعان بالخيار ما لم يتفرقا» وهذا صريح في إثبات خيار المجلس المتعقب لعقد البيع، وليس هذا منافياً للزوم العقد، بل هو من مقتضياته شرعاً، فالتزامه من تمام الوفاء بالعقود. وقوله تعالى: ﴿أُحِلَّتْ لَكُمْ بَيْعَةُ الْاِنْعَامِ﴾ هي الإبل والبقر والغنم، وقد استدلل بهذه الآية على إباحة الجنين إذا وجد ميتاً في بطن أمه إذا ذبحت، وقد روى أبو داود والترمذي وابن ماجه عن أبي سعيد قال: قلنا: يا رسول الله، تنحر الناقة، وتذبح البقرة أو الشاة في بطنها الجنين، أنلقيه أم نأكله؟ فقال: «كلوه إن شئتم، فإن ذكاته ذكاة أمه». وقوله ﴿اِلَّا مَا يَتَنَلَّ عَلَيْكُمْ﴾ يعني بذلك الميتة والدم ولحم الخنزير، وما أهل لغير الله به مما هو مذكور في قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ اَلْمَيْتَةُ وَالدَّمُ...﴾ وقوله: ﴿عِيْرَ مِحْلِي الصَّيْدِ وَاَنْتُمْ حُرْمٌ﴾ والمراد بالأنعام ما يعم الإنس من الإبل والبقر والغنم وما يعم الوحش كالظباء والبقر والحمير، فاستثنى من الإنس ما تقدم، واستثنى من الوحش الصيد في حال الإحرام.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا مِحْلُوا سَعَيْرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا اَلْهَدْيَ وَلَا اَلْقَلْبِيدَ وَلَا ءَامِنِينَ اَلْبَيْتِ الْحَرَامِ يَتَّبِعُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَاِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ اَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ اَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوٰى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْاِثْمِ وَالْعُدُوْنِ وَاَتَّقُوا اللَّهَ اِنَّ اللَّهَ شَدِيْدُ الْعِقَابِ ﴿٢﴾﴾ .

﴿سَعَيْرَ اللَّهِ﴾ محارمه التي حرمها، ولهذا قال تعالى ﴿وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾ يعني بذلك تحريمه والاعتراف بتعظيمه، وترك ما نهى الله عن تعاطيه فيه من الابتداء بالقتال، وتأكيده اجتناب المحارم. وقوله تعالى: ﴿وَلَا اَلْهَدْيَ وَلَا اَلْقَلْبِيدَ﴾ يعني لا تتركوا الإهداء إلى البيت الحرام، فإن فيه تعظيم شعائر الله، ولا تتركوا تقليدها في أعناقها لتتميز به عما عداها من الأنعام، وليعلم أنها هدى الكعبة

فليجتنبها من يريد بها بسوء، وتبعث من يراها على الإتيان بمثلها، فإن من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه، من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ولهذا لما حج رسول الله ﷺ بات بذبي الحليفة وهو وادي العقيق فلما أصبح طاف على نسائه وكن تسعاً، ثم اغتسل وتطيب وصلى ركعتين، ثم أشعر هديه وقلده، وأهل للحج والعمرة وكان هديه إبلاً كثيرة تنيف على الستين من أحسن الأشكال والألوان كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ شَعْرَهُ اللَّهُ فَأِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴿٢٦﴾﴾ [الحج: 32] قال مقاتل بن حيان ﴿وَلَا أَلْفَلَيْدٌ﴾ فلا تستحلوها، وكان أهل الجاهلية إذا خرجوا من أوطانهم في غير الأشهر الحرم قلدوا أنفسهم بالشعر والوبر، وتقلد مشركو الحرم من لحاء شجرة فيأمون. وقوله تعالى: ﴿وَلَا آمِينَ أَلْبَيْتَ الْحَرَامِ...﴾ أي ولا تستحلوا قتال القاصدين إلى بيت الله الحرام الذي من دخله كان آمناً، وكذا من قصده طالباً فضل الله، وراغباً في رضوانه، فلا تصدوه ولا تمنعوه ولا تهجوه. ﴿فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ﴾ يعني التجارة. وقوله: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ أي إذا فرغتم من إحرامكم وأحللتهم منه فقد أبحنا لكم ما كان محرماً عليكم في حال الإحرام من الصيد. والصحيح أن الأمر بعد الحظر يعود في الحكم إلى ما كان عليه قبل النهي، فإن كان واجباً رده واجباً، وإن كان مستحباً فمستحب، أو مباحاً فمباح. وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ...﴾ أي لا يحملنكم بغض قوم على ترك العدل، فإن العدل واجب على كل أحد في كل حال، والعدل به قامت السموات والأرض. وقوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ...﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين بالمعاونة على فعل الخيرات وهو البر، وترك المنكرات، وهو التقوى، ونهاهم عن التناصر على الباطل والتعاون على المآثم والمحارم. وفي الحديث «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً» قيل: يا رسول الله، هذا نصرته مظلوماً، فكيف أنصره إذا كان ظالماً؟ قال: «تحجزه وتمنعه من الظلم، فذاك نصره».

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَالِدَمُّ وَالْحَمُّ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَفَقَةُ وَالْمَوْوَدَةُ وَالْمَرْدِيَّةُ وَالنَّطِيعَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ إِلَّا مَا ذَكَيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصَبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَمِ ذَلِكَ كُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَبْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَأَخْشَوْنَ الْيَوْمَ أَكَلْتُمْ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنْ أَضْطَرَّ فِي مَحَبَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾.

يخبر تعالى عباده خيراً متضمناً للنهي عن تعاطي هذه المحرمات من الميتة، وهي ما مات من الحيوانات حتف أنفه من غير ذكاة ولا اصطياد، وما ذاك إلا لما فيها من المضرة، لما فيها من الدم المحتقن، فهي ضارة للدين وللبدن، فلهذا حرمها الله عز وجل، ويستثنى من الميتة السمك، فإنه حلال، سواء مات بتذكية أو غيرها، لما جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ سئل عن ماء البحر فقال: «هو الطهور ماؤه الحل ميتته» وهكذا الجراد. وقوله ﴿وَالِدَمُّ﴾ يعني به المسفوح، كقوله: ﴿أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا﴾ [الأنعام: 145] وفي الحديث «أحل لنا ميتتان ودمان، فأما الميتتان فالسمك والجراد، وأما الدمان فالكبد والطحال» عن أبي أمامة: صدي بن عجلان قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى

قومي أَدْعُوهم إلى الله ورسوله، وأعرض عليهم شرائع الإسلام، فأنتيتهم، فبينما نحن كذلك إذ جاؤوا بوصفة من دم فاجتمعوا عليها يأكلونها، فقالوا: هلم يا صدي فكل، قال: قلت: ويحكم، إنما أنتيتكم من عند من يحرم هذا عليكم فأقبلوا عليه، قالوا: وما ذاك؟ فتلوت عليهم هذه الآية ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ...﴾، قال: فجعلت أَدْعُوهم إلى الإسلام ويأبون علي، فقلت: ويحكم، اسقوني شربة من ماء، فإني شديد العطش، قال: وعلي عبايتي، فقالوا: لا، ولكن ندعك حتى تموت عطشاً، قال: فاغتممت، وضربت برأسي في العباء، ونمت على الرضاء في حر شديد، قال: فأتاني آت في منامي بقدح من زجاج لم ير الناس أحسن منه، وفيه شراب لم ير الناس ألد منه، فأمكنني منه فشربته، فلما فرغت من شرابي استيقظت، فلا والله عطشت ولا عريت بعد تيك الشربة، رواه ابن مردويه، ورواه الحاكم في مستدرکه، وفي رواية، فسمعتهم يقولون: أتاكم رجل من سراة قومكم، فلم تمجعهو بحذقة، فأتوني بحذقة، فقلت: لا حاجة لي فيها، إن الله أطعمني وسقاني، وأريتهم بطني فأسلموا على آخرهم. قوله: ﴿وَلَعَلَّ الْخَنزِيرَ﴾ يعني إنسيه ووحشيه، واللحم يعم جميع أجزائه حتى الشحم، وفي الحديث «من لعب بالزردشير فكأنما صبغ يده في لحم الخنزير ودمه» وقوله: ﴿وَمَا أَهْلٌ لِّبَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ أي ما ذبح فذكر عليه اسم غير الله فهو حرام، كقوله: ﴿وَالْمُنْحَفَةُ﴾ وهي التي تموت بالخنق، إما قصداً وإما اتفاقاً بأن تتخيل في وثاقتها فتموت به فهي حرام. ﴿وَالْمَوْفُودَةُ﴾ وهي التي تضرب بشيء ثقيل غير محدد حتى تموت ﴿وَالْمَرْدِيَّةُ﴾ وهي التي تقع من شاهق، أو موضع عالٍ فتموت بذلك فلا تحل. وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ﴾ أي ما عدا عليها أسد أو فهد أو نمر أو ذئب أو كلب فأكل بعضها فماتت بذلك فهي حرام، وإن كان قد سال فيها الدم، ولو من مذبحة فلا تحل بالإجماع. وقوله: ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ عائد على ما يمكن عوده عليه مما انعدت سبب موته فأمكن تداركه بذكاة وفيه حياة مستقرة، وذلك إنما يعود على قوله ﴿وَالْمُنْحَفَةُ وَالْمَوْفُودَةُ وَالْمَرْدِيَّةُ وَالنَّطِيعَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ﴾ ﴿وَمَا ذُيِّعَ عَلَى النَّصْبِ﴾ كانت النصب حجارة حول الكعبة، وكانت العرب في جاهليتها يذبحون عندها، ويشرحون اللحم ويضعونه على النصب، فنهى الله المؤمنين عن هذا الصنيع، وحرم عليهم أكل هذه الذبائح حتى ولو كان يذكر اسم الله في الذبح عليها. وقوله: ﴿وَأَنْ تَسْتَفْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ﴾ والأزلام قداح كانوا يستقسمون بها في الأمور، ﴿ذَلِكُمْ فِسْقٌ﴾ أي تعاطي ذلك فسق وغي وضلالة وجهالة وشرك، والأزلام واحدها زلم، وهي عبارة عن قداح ثلاثة، على أحدها مكتوب افعل، وعلى الآخر لا تفعل، والثالث غفل ليس عليه شيء، ومن الناس من قال: مكتوب على الواحد: أمرني ربي، وعلى الآخر: نهاني ربي، والثالث غفل ليس عليه شيء، فإذا أجالها فطلع سهم الأمر فعله، أو النهي تركه، وإن طلع الفارغ أعاد.. وقوله ﴿الْيَوْمَ يَبْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَيْنِكُمْ﴾ يعني يسوا أن يراجعوا دينهم، وفي الحديث الصحيح «إن الشيطان قد يس أن يعبد المصلون في جزيرة العرب، ولكن بالتحريش بينهم» ﴿فَلَا تَحْسَبُوهُمْ وَآخِسُونَ﴾ أي لا تخافوهم في مخالفتكم إياهم، واخشوني أنصركم عليهم، وأبدهم، وأظفركم بهم،

وأشف صدوركم منهم، وأجعلكم فوقهم في الدنيا والآخرة. وقوله: ﴿أَلْيَوْمَ أَكَلْتُمْ لَكُمْ...﴾ هذه أكبر نعم الله على هذه الأمة حيث أكمل تعالى لهم دينهم فلا يحتاجون إلى دين غيره ولا إلى نبي غير نبيهم، ولهذا جعله الله خاتم النبيين، وبعثه إلى الإنس والجن، فلا حلال إلا ما أحله، ولا حرام إلا ما حرمه، ولا دين إلا ما شرعه وكل شيء أخبر به فهو حق وصدق لا كذب فيه ولا خلق. وقوله ﴿فَمَنْ أَضَلُّ...﴾ أي فمن احتاج إلى تناول شيء من هذه المحرمات التي ذكرها الله تعالى لضرورة ألجأته إلى ذلك فله تناوله والله غفور رحيم ﴿غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِيْتِرٍ﴾ أي متعاط لمعصية الله، فإن الله قد أباح ذلك له... وقد استدلت بهذه الآية من يقول: بأن العاصي بسفره لا يترخص بشيء من رخص السفر، لأن الرخص لا تنال بالمعاصي. والله أعلم.

﴿يَسْتَلُونَكَ مَاذَا أَحَلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَانْقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعَ الْحِسَابِ ﴿٤١﴾﴾ .

لما ذكر الله ما حرمه في الآية المتقدمة من الجنائب الضارة لمتناولها إما في بدنه أو في دينه فيها واستثنى ما استثناه في حالة الضرورة قال بعدها: ﴿يَسْتَلُونَكَ مَاذَا أَحَلَّ لَهُمْ...﴾ يعني الذبائح الحلال الطيبة لهم، أو هي الحلال من الرزق. ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾ أي وأحل لكم ما صدتموه بالجوارح، وهي الكلاب الضواري والفهود والصقور وأشباهاها. ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ﴾ وهو أنه إذا أرسل استرسل، وإذا أشلا، استشلى، وإذا أخذ الصيد أمسكه على صاحبه حتى يجيء إليه ولا يمسكه لنفسه ولهذا قال تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ فمتى كان الجارح معلماً، وأمسك على صاحبه وكان قد ذكر اسم الله عليه وقت إرساله حل الصيد وإن قتله بالإجماع. ثبت في الصحيحين عن عدي بن حاتم قال: قلت: يا رسول الله، إني أرسل الكلاب المعلمة، وأذكر اسم الله، فقال: «إذا أرسلت كلبك المعلم، وذكرت اسم الله فكل ما أمسك عليك» قلت: «وإن قتلن؟ قال: «وإن قتلن ما لم يشركها كلب ليس منها، فإنك إنما سميت على كلبك، ولم تسم على غيره» قلت له: «فإني أرمي بالمعراض الصيد فأصيب؟ فقال: «إذا رميت بالمعراض فخرق فكله، وإن أصابه بعرض فإنه وقيد فلا تأكله» وفي رواية لهما «فإن أكل فلا تأكل، فإني أخاف أن يكون أمسك على نفسه» فهذا دليل الجمهور وهو الصحيح من مذهب الشافعي، وهو إنه إذا أكل الكلب من الصيد يحرم مطلقاً. وقال بعض الناس المراد بهذه الآية ﴿وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ الأمر بالتسمية عند الأكل كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ علم ربيبه عمر بن أبي سلمة فقال: «سم الله، وكل بيمينك، وكل مما يليك» وفي صحيح البخاري عن عائشة أنهم قالوا: يا رسول الله، إن قوماً يأتوننا حديث عهدهم بكفر بلحمان لا ندري أذكر اسم الله عليها أم لا؟ فقال: «سموا أنتم وكلوا» وروى مسلم وأهل السنن إلا الترمذي عن جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ قال: «إذا دخل الرجل بيته فذكر الله عند دخوله وعند طعامه قال الشيطان: لا مبيت لكم ولا عشاء، وإذا دخل ولم

يذكر اسم الله عند دخوله قال الشيطان أدرتكم المبيت، فإذا لم يذكر اسم الله عند طعامه قال: أدرتكم المبيت والعشاء، لفظ أبي داود.

﴿الْيَوْمَ أَحِلُّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَفِّحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ ﴿٥﴾﴾ .

لما ذكر تعالى ما حرمه على عباده المؤمنين من الخبائث وما أحله لهم من الطيبات قال بعده: ﴿الْيَوْمَ أَحِلُّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ﴾ ثم ذكر حكم ذبائح أهل الكتابين من اليهود والنصارى فقال: ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ﴾ يعني ذبائحهم، وهذا أمر مجمع عليه بين العلماء إن ذبائحهم حلال للمسلمين لأنهم يعتقدون تحريم الذبح لغير الله، ولا يذكرون على ذبائحهم إلا اسم الله، وإن اعتقدوا فيه تعالى ما هو منزه عنه تعالى وتقدس، ودلت الآية ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ . . . بمفهوم المخالفة على أن طعام من عداهم من أهل الأديان لا يحل. وقوله ﴿وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَكُمْ﴾ أي ويحل لكم أن تطعموهم من ذبائحكم كما أكلتم من ذبائحهم، وهذا من باب المكافأة والمقابلة والمجازاة، كما ألبس النبي ﷺ ثوبه لعبد الله بن أبي ابن سلول حين مات ودفنه فيه، قالوا: لأنه كان قد كسا العباس حين قدم المدينة ثوبه، فجازاه النبي ﷺ بذلك، فأما الحديث الذي فيه «لا تصحب إلا مؤمناً، ولا يأكل طعامك إلا تقي» فمحمول على النذب والاستحباب. وقوله: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ أي وأحل لكم نكاح الحرائر العفاف من النساء المؤمنات، وذكر هذا توطئة لما بعده ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ فقول: أراد بالمحصنات الحرائر دون الإماء، والظاهر من الآية أن المراد بالمحصنات العفيفات عن الزنا. ﴿إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ أي مهورهن، أي كما هن محصنات عفاف فابذلوا لهن المهور عن طيب نفس. ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَفِّحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾ فكما شرط الاحصان في النساء، وهي العفة عن الزنا كذلك شرطها في الرجال، وهو أن يكون الرجل أيضاً محصناً عفيفاً، ولهذا قال: ﴿غَيْرَ مُسَفِّحِينَ﴾ وهم الزناة الذين لا يرتدعون عن معصية، ولا يردون أنفسهم عما جاءهم، ﴿وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾ أي ذوي العشيقات الذين لا يفعلون إلا معهن.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾﴾ .

﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾ أي وأنتم محدثون، أو الآية آمرة بالوضوء عند القيام إلى الصلاة، ولكن هو

في حق المحدث واجب، وفي حق المتطهر ندب. وقد استدل طائفة من العلماء بقوله: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾ على وجوب النية في الوضوء لأن تقدير الكلام، فاغسلوا وجوهكم كلها كما تقول العرب: إذا رأيت الأمير فقم، أي له، وقد ثبت في الصحيحين حديث «الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى»، وقوله ﴿وَأَيِّدِيكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾ أي مع المرافق. وقوله: ﴿وَأَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ﴾ الباء للالصاق وهو الأظهر، أو للتبعيض وقوله: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ وفي الحديث «أسبغوا الوضوء، ويل للأعقاب من النار» وفي البخاري عن عائشة قالت: سقطت قلادة لي بالبيداء ونحن داخلون المدينة فأناخ رسول الله ونزل فثنى رأسه في حجري راقداً، فأقبل أبو بكر، فلكزني لكزة شديدة، وقال: حبست الناس في قلادة فتمنيت الموت لمكان رسول الله ﷺ مني، وقد أوجعني، ثم إن النبي ﷺ استيقظ وحضرت الصبح فالتمس الماء فلم يوجد، فنزلت ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ...﴾ وقوله ﴿مَا يَرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ﴾ أي فهذا سهل عليكم ويسر ولم يعسر، بل أباح التيمم عند المرض، وعند فقد الماء توسعة عليكم ورحمة بكم، وفي صحيح مسلم «الطهور شطر الإعان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والله أكبر تملأ ما بين السماء والأرض والصوم جنة والصبر جنة، والصدقة برهان، والقرآن حجة لك أو عليك، كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها» وفي الحديث أيضاً «لا يقبل الله صدقة من غلول، ولا صلاة بغير طهور».

﴿وَأذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَتَقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلَيْهِمْ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (٧).

يقول تعالى مذكراً عباده المؤمنين نعمته عليهم في شرعه لهم هذا الدين العظيم، وإرساله إليهم هذا الرسول الكريم، وما أخذ عليهم من العهد والميثاق في مبايعته ومناصرته وموازرتة، والقيام بدینه، وإبلاغه عنه، وقوله منه فقال ﴿وَأذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ وهذه هي البيعة التي كانوا يبايعون عليها رسول الله ﷺ عند إسلامهم، كما قالوا: بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا، وأثرة علينا، وأن لا ننازع الأمر أهله، وقيل: هذا تذكار لليهود بما أخذ عليهم من الموائيق والعهود في متابعة محمد ﷺ، والانقياد لشرعه. ﴿وَأَتَقُوا اللَّهَ﴾ هذا تأكيد وتحريض على مواظبة التقوى في كل حال، ثم أعلمهم أنه يعلم ما يختلج فيه الضمائر من الأسرار والخواطر فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَيْهِمْ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوْمِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاانُ قَوْمٍ عَلَىٰ وَلَا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (٨).

أي كونوا قوامين بالحق لله عز وجل، لا لأجل الناس والسمعة، وكونوا ﴿شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾ أي

بالعدل، لا بالجور، وقد ثبت في الصحيحين عن النعمان بن بشير أنه قال: نحلني أبي نحلاً، فقالت أمي عمرة بنت رواحة: لا أرضى حتى تشهد عليه رسول الله ﷺ، فجاءه ليشهده على صدقتي، فقال: «أكل ولدك نحلته مثله»؟ قال: لا، فقال: «اتقوا الله واعدلوا في أولادكم» وقال: «إني لا أشهد على جور» قال: فرجع أبي فرد تلك الصدقة. وقوله: ﴿وَلَا يَجْرِيَنَّكُمْ سِتْرَانُ قَوْمٍ عَلَيْكَ إِلَّا تَقَدَّلُوا﴾ أي لا يحملنكم بغض قوم على ترك العدل فيهم، بل استعملوا العدل في كل أحد صديقاً كان أو عدواً، ولهذا قال: ﴿أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ أي عدلكم أقرب إلى التقوى من تركه. ثم قال تعالى: ﴿وَأَتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي وسيجزىكم على ما علم من أفعالكم التي عملتموها، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. ولهذا قال بعده.

﴿وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ .

﴿وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ أي لذنوبهم ﴿وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ وهو الجنة التي هي من رحمته على عباده لا ينالونها بأعمالهم، بل برحمة منه وفضل، وإن كان سبب وصول الرحمة إليهم أعمالهم، وهو تعالى الذي جعلها أسباباً إلى مثل رحمته وفضله وعفوه ورضوانه، فالكل منه وله، فله الحمد والمنة.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ .

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا...﴾ وهذا من عدله تعالى وحكمته وحكمه الذي لا يجور فيه، بل هو الحكم العدل، الحكيم القدير.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ .

عن جابر أن النبي ﷺ نزل منزلاً، وتفرق الناس في العضاة يستظلون تحتها، وعلق النبي ﷺ سلاحه بشجرة، فجاء أعرابي إلى سيف رسول الله ﷺ، فأخذه فسله، ثم أقبل على النبي ﷺ، فقال: ما يمنعك مني؟ قال: «الله عز وجل» قال الأعرابي مرتين أو ثلاثاً! من يمنعك مني؟ والنبي ﷺ يقول: «الله» قال: فشام الأعرابي السيف فدعا النبي ﷺ أصحابه فأخبرهم خبر الأعرابي، وهو جالس إلى جنبه ولم يعاقبه. وقصة هذا الأعرابي، وهو غورث بن الحارث ثابتة في الصحيح. وعن ابن عباس في هذه الآية أن قوماً من اليهود صنعوا لرسول ﷺ ولأصحابه طعاماً ليقتلوه، فأوحى الله إليه بشأنهم، فلم يأت الطعام، وأمر أصحابه أتوه. وقال غير واحد: إنها نزلت في شأن بني النضير حين أرادوا أن يلقوا على رأس رسول الله ﷺ الرحي لما جاءهم يستعينهم في دية العامرين، ووكلوا عمر بن حجاج بذلك، وأمروه إن جلس رسول الله ﷺ تحت الجدار، واجتمعوا عنده أن يلقي تلك الرحي من فوقه، فأطلع الله النبي ﷺ على ما تمالؤوا عليه، فرجع النبي ﷺ إلى المدينة وتبعه

أصحابه فأنزل الله هذه الآية . وقوله تعالى : ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ يعني من توكل على الله كفاه الله ما أهمه وحفظه من شر الناس وعصمه ، ثم أمر رسول الله ﷺ أن يغدوا إليهم فحاصرهم حتى أنزلهم فأجلاهم .

﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ ﴿١٢﴾ .

لما أمر الله تعالى عباده المؤمنين بالوفاء بعهده وميثاقه الذي أخذه عليهم على لسان عبده ورسوله محمد ﷺ ، وأمرهم بالقيام بالحق ، والشهادة بالعدل ، وذكره نعمه عليهم الظاهرة والباطنة فيما هداهم له من الحق والهدى شرع يبين لهم كيف أخذ العهود والمواثيق على من كان قبلهم من أهل الكتابين : اليهود والنصارى ، فلما نقضوا عهوده ومواثيقه أعقبهم ذلك لعناً منه عليهم ، وطرداً عن بابه وجنابه ، وحجاباً لقلوبهم عن الوصول إلى الهدى ودين الحق ، وهو العلم النافع ، والعمل الصالح ، فقال تعالى ﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا ﴾ يعني عرفاء على قبائلهم بالمبايعة والسمع والطاعة لله ولرسوله ولكتابه ، وقد ذكر أن هذا كان لما توجه موسى ﷺ لقتال الجبارية فأمر أن يقيم نقباء من كل سبط نقيب . وقوله تعالى ﴿ وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ ﴾ أي بحفظي وكلائي ونصري ﴿ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي ﴾ أي صدقتموهم فيما يجيئونكم به من الوحي ﴿ وَعَزَّرْتُمُوهُمْ ﴾ أي نصرتموهم ووازرتموهم على الحق . ﴿ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ وهو الانفاق في سبيله وابتغاء مرضاته ﴿ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾ أي ذنوبكم ، أمحوها وأسترها ، ولا أؤاخذكم بها . ﴿ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ أي أدفع عنكم المحذور ، وأحصل لكم المقصود . وقوله ﴿ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ أي فمن خالف هذا الميثاق بعد عقده وتوكيده وشده ، وجحده وعامله معاملة من لا يعرفه فقد أخطأ الطريق الواضح ، وعدل عن الهدى إلى الضلال .

﴿ فِيمَا نَقَضُوا مِيثَقَهُمْ لَعْنَهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَلْسِيَةً يَحِرُّونَ الْكَلِمَةَ عَنِ مَوَاضِعِهِمْ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا نَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَأَصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ ﴿١٣﴾ .

ثم أخبر تعالى عما حل بهم من العقوبة عند مخالفتهم ميثاقه ، ونقضهم عهده فقال : ﴿ فِيمَا نَقَضُوا مِيثَقَهُمْ لَعْنَهُمْ ﴾ أي فبسبب نقضهم الميثاق الذي أخذ عليهم لعناهم ، أي أبعدها عن الحق ، وطردناهم عن الهدى ﴿ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَلْسِيَةً ﴾ أي فلا يتعظون بموعظة لغلظها وقساوتها

﴿يَحْفُوتُ الْكَلِمَةَ عَنِ مَوَاضِعِهِ﴾ أي فسدت فهمهم، وساء تصرفهم في آيات الله، وتأولوا كتابه على غير ما أنزله، وحملوه على غير مراده، وقالوا عليه ما لم يقل، عياداً بالله من ذلك ﴿وَسُوءَ حَقًّا وَمَا دُكِّرُوا بِهِ﴾ أي وتركوا العمل به رغبة عنه، فلا قلوب سليمة، ولا فطر مستقيمة، ولا أعمال قويمه ﴿وَلَا نَزَالَ تَطْلُعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ﴾ يعني مكرهم وغدرهم لك ولأصحابك ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ﴾ وهذا هو عين النصر والظفر، كما قال بعض السلف: ما عاملت من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه. وبهذا يحصل لهم تأليف وجمع على الحق، ولعل الله أن يهديهم. ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ يعني به الصفح عن أساء إليك.

﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِيُّ أَخَذْنَا مِنْهُمُ حَقًّا وَمَا دُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَبْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ (١٤).

أي ومن الذين ادعوا لأنفسهم أنهم نصارى متابعون المسيح ابن مريم عليه السلام وليسوا كذلك، أخذنا عليهم العهود والمواثيق على متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم، ومناصرته وموازرتة، واقتفاء آثاره، وعلى الإيمان بكل نبي يرسله الله إلى أهل الأرض ففعلوا كما فعل اليهود خالفوا المواثيق، ونقضوا العهود، ولهذا قال تعالى ﴿فَسُوءَ حَقًّا وَمَا دُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَبْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ أي فألقينا بينهم العداوة والبغضاء لبعضهم بعضاً، ولا يزالون كذلك إلى قيام الساعة، وكذلك طوائف النصارى على اختلاف أجناسهم لا يزالون متباغضين متعادين يكفر بعضهم بعضاً، ويلعن بعضهم بعضاً، فكل فرقة تحرم الأخرى، ولا تدعها تلج معبدها، فالملكية تكفر اليعقوبية، وكذلك الآخرون، وكذلك النسطورية والآريوسية، كل طائفة تكفر الأخرى في هذه الدنيا ويوم يقوم الأشهاد، ثم قال تعالى: ﴿وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ وهذا تهديد ووعد أكيد للنصارى على ما ارتكبوه من الكذب على الله وعلى رسوله، وما نسبوه إلى الرب عز وجل، وتعالى وتقدس عن قولهم علواً كبيراً من جعلهم له صاحبة وولداً، تعالى الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد.

﴿يَتَأَهَّلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ (١٥).

يقول تعالى مخبراً عن نفسه الكريمة أنه قد أرسل رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم بالهدى ودين الحق إلى جميع أهل الأرض: عربهم وعجمهم أميهم وكتابيهم، وأنه بعثه بالبينات، والفرق بين الحق والباطل، فقال تعالى: ﴿يَتَأَهَّلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ...﴾ أي يبين ما بدلوه وأولوه وافتروا على الله فيه، ويسكت عن كثير مما غيره، ولا فائدة في بيانه. ثم أخبر تعالى عن القرآن العظيم الذي أنزله على نبيه الكريم، فقال: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾.

﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (١١) .  
 ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾ أي طرق النجاة والسلامة، ومناهج الاستقامة  
 ﴿وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ...﴾ أي ينجيهم من المهالك، ويوضح لهم أبين المسالك فيصرف عنهم  
 المحذور، ويحصل لهم أحب الأمور، وينفي عنهم الضلالة، ويرشدهم إلى أقوم حالة.

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١٧) .  
 يقول تعالى مخبراً وحاكياً بكفر النصارى في ادعائهم في المسيح ابن مريم، وهو عبد من عباد الله،  
 وخلق من خلقه أنه هو الله، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً، ثم قال مخبراً عن قدرته على الأشياء  
 وكونها تحت قهره وسلطانه ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ...﴾ أي  
 لو أراد ذلك فمن ذا الذي كان يمنعه منه، أو من ذا الذي يقدر على صرفه عن ذلك؟ ثم قال: ﴿وَلِلَّهِ  
 مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾ أي جميع الموجودات ملكه وخلقها، وهو القادر على ما يشاء، ولا  
 يسأل عما يفعل بقدرته وسلطانه وعدله وعظمته، وهذا رد على النصارى، عليهم لعائن الله المتابعة  
 إلى يوم القيامة.

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّهُمْ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ (٨١) .

ثم قال تعالى رداً على اليهود والنصارى في كذبهم وافتراءهم ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ  
 وَأَحِبُّهُمْ﴾ أي نحن منتسبون إلى أنبيائه وهم بنوه، وله بهم عناية، وهو يحبنا، قال تعالى رداً عليهم  
 ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ﴾ أي لو كنتم كما تدعون أبناءه وأحباءه فلم أعد لكم نار جهنم على  
 كفركم وكذبكم وافتراءكم؟ وقد قال بعض شيوخ الصوفية لبعض الفقهاء: أين تجد في القرآن أن  
 الحبيب لا يعذب حبيبه؟ فلم يرد عليه فتلا عليه الصوفي هذه الآية ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ﴾ وهذا  
 الذي قاله حسن، وله شاهد في المسند للإمام أحمد عن أنس قال: مر النبي ﷺ بنفر من أصحابه،  
 وصبي في الطريق، فلما رأت أمه القوم خشيت على ولدها أن يوطأ. فأقبلت تسعى، وتقول: ابني  
 ابني، وسعت فأخذته، فقال القوم: يا رسول الله، ما كانت هذه لتلقي ولدها في النار، فقال  
 النبي ﷺ: «لا والله ما يلقي حبيبه في النار» تفرد به أحمد. ﴿بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾ أي لكم أسوة  
 أمثالكم من بني آدم، وهو سبحانه الحاكم في جميع عبادته ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ أي هو

فعال لما يريد، لا معقب لحكمه، وهو سريع الحساب ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي الجميع ملكه، وتحت قهره وسلطانه ﴿وَالْيَوْمَ نَصِيبُهُ﴾ أي المرجع والمآب إليه، فيحكم في عبادته بما يشاء، وهو العادل الذي لا يجوز.

﴿يَأْهَلُ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرَّسُولِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿١٦﴾ .

يقول تعالى مخاطباً أهل الكتاب من اليهود والنصارى بأنه قد أرسل إليهم محمداً ﷺ خاتم النبيين الذي لا نبي بعده، ولا رسول، بل هو المعقب لجميعهم، ولهذا قال: ﴿عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرَّسُولِ﴾ أي بعد مدة متطاولة ما بين إرساله وعيسى ابن مريم. وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «أنا أولى الناس بابن مريم، لأنه ليس بيني وبينه نبي» والمقصود أن الله بعث محمداً ﷺ على فترة من الرسل، وطموس من السبل، وتغير الأديان، وكثرة عبادة الأوثان والنيران، والصليبان فكانت النعمة به أتم النعم، والحاجة إليه أمر عمم، فإن الفساد كان قد عم جميع البلاد، والطغيان والجهل قد ظهر في سائر العباد إلا قليلاً من المتمسكين ببقايا من دين الأنبياء الأقدمين، من بعض أحبار اليهود، وعباد النصارى والصابئين، وفي الحديث «وإن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عجمهم وعربهم إلا بقايا من بني إسرائيل»، وفي لفظ مسلم «من أهل الكتاب». الحديث، وكان الدين قد التبس على أهل الأرض كلهم حتى بعث الله محمداً ﷺ فهدى الخلائق، وأخرجهم من الظلمات إلى النور، وتركهم على المحجة البيضاء، والشريعة الغراء. ولهذا قال: ﴿أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ أي لثلاث تحتجوا وتقولوا يا أيها الذين بدلوا فيه وغيروه ما جاءنا من رسول يبشر بالخير، وينذر بالشر ﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾، يعني محمداً ﷺ ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ معناه: إني قادر على عقاب من عصاني، وثواب من أطاعني.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يُقَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٢٠﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله وكليمه موسى بن عمران ﷺ فيما ذكر به قومه من نعم الله عليهم وآلائه لديهم في جمعه لهم على خير الدنيا والآخرة لو استقاموا على طريقتهم المستقيمة فقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يُقَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ﴾ أي كلما هلك نبي قام فيكم نبي من لدن أبيكم وإبراهيم إلى من بعده، وكذلك كانوا لا يزال فيهم الأنبياء، يدعون إلى الله، ويحذرون نعمته حتى ختموا بعيسى ابن مريم ﷺ، ثم أوحى الله إلى خاتم الأنبياء والرسول على الإطلاق محمد بن عبد الله المنسوب إلى إسماعيل بن إبراهيم ﷺ، وهو أشرف من كل من تقدمه منهم ﷺ. وقوله: ﴿وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا﴾ يملك الرجل منكم نفسه وماله وأهله، وفي



«أشيروا عليّ أيها المسلمون» وما يقول ذلك إلا ليستعلم ما عند الأنصار، لأنهم كانوا جمهور الناس يومئذ، فقال سعد بن معاذ: كأنك تعرض بنايا رسول الله، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن نلقى عدونا غداً، إنا لصبر في الحرب، صدق في اللقاء، لعل أن يريك منا ما تقر به عينك فسر بنا على بركة الله، فسر رسول الله ﷺ بقول سعد، ونشطه ذلك. قال عبد الله بن مسعود: لقد شهدت من المقداد مشهداً لأن أكون أنا صاحبه أحب إلي مما عدل به أتى رسول الله لا وهو يدعو على المشركين فقال: والله قال: يا رسول الله، لا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ ولكننا نقاتل عن يمينك وعن يسارك، ومن بين يديك ومن خلفك، فرأيت وجه رسول الله أشرق لذلك وسره ذلك.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ (٢٥).

لما نكل بنو إسرائيل عن القتال غضب عليهم موسى ﷺ، وقال داعياً عليهم ﴿رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي﴾ أي ليس أحد يطيعني منهم فيمثل أمر الله، ويجيب إلى ما دعوت إليه إلا أنا وأخي هارون ﴿فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ يعني اقض بيني وبينهم، أو افصل بيننا وبينهم.

﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ

الْفَاسِقِينَ﴾ (٢٦).

لما دعا عليهم موسى ﷺ حين نكلوا عن الجهاد حكم الله بتحريم دخولها عليهم مدة أربعين سنة فوقعوا في التيه يسكرون دائماً، لا يهتدون للخروج منه، وفيه كانت أمور عجيبة، وخوارق كثيرة من تظليلهم بالغمام، وإنزال المن والسلوى عليهم، ومن إخراج الماء الجاري من صخرة صماء تحمل معهم على دابة، فإذا ضربها موسى بعصاه انفجرت من ذلك الحجر اثنا عشر عيناً تجري لكل شعب عين، وغير ذلك من المعجزات التي أيد الله بها موسى بن عمران، وهناك نزلت التوراة، وشرعت لهم الأحكام، وعملت قبة العهد، وهناك تاهوا أربعين سنة كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ يصبحون كل يوم يسكرون، ليس لهم قرار، ثم كانت وفاة هارون ﷺ، ثم بعده بمدة ثلاث سنين وفاة موسى الكليم ﷺ، وأقام الله فيهم يوشع بن نون ﷺ نبياً خليفة عن موسى بن عمران، ومات أكثر بني إسرائيل هناك في تلك المدة، ويقال: إنه لم يبق منهم أحد سوى يوشع وكالب، ومن ههنا قال بعض المفسرين في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾: هذا وقف تام. وقوله: ﴿أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ منصوب بقوله: ﴿يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ فلما انقضت المدة خرج بهم يوشع بن نون، أو بمن بقي منهم وبسائر بني إسرائيل من الجبل الثاني فقصدهم بيت المقدس فحاصروهم فكان فتحها يوم الجمعة بعد العصر، فلما تضيفت الشمس للغروب وخشي دخول السبت عليهم قال: إنك مأمورة وأنا مأمور، اللهم احبسها عليّ فحبسها الله تعالى حتى فتحها، وأمر

الله يوشع بن نون أن يأمر بني إسرائيل حين يدخلون بيت المقدس أن يدخلوا بابها سجداً، وهم يقولون: «حطة» أي حط عنا ذنوبنا، فبدلوا ما أمروا به ودخلوا يزحفون على أستاههم وهم يقولون: حبة في شعرة. ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ هذا تسلية لموسى عنهم أي لا تأسف ولا تحزن عليهم فيما حكمت عليهم به فإنهم مستحقون لذلك.

﴿وَآتَىٰ عَلَيْهِم نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُنْقَبَلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ (١٧).

يقول تعالى مبيناً وخيم عاقبة البغي والحسد والظلم في خبر ابن آدم لصلبه في قول الجمهور، وهما قابيل وهابيل، كيف عدا أحدهما على الآخر فقتله بغياً وحسداً فيما وهبه الله من النعمة، وتقبل القربان الذي أخلص فيه الله عز وجل ففاض المقتول بوضع الآثام والدخول إلى الجنة، وخاب القاتل، ورجع بالصفقة الخاسرة في الدارين فقال تعالى: ﴿وَآتَىٰ عَلَيْهِم نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ﴾ أي اقصص على هؤلاء البغاة الحسدة إخوان الخنازير والقردة من اليهود وأمثالهم وأشباههم خبر ابني آدم. وقوله ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي على الجلية والأمر الذي لا لبس فيه ولا كذب، ولا زيادة ولا نقصان. وقرب الشاة هابيل، والطعام قابيل فجاءت نار فأكلت الشاة وتركت الزرع، ومعنى قوله ﴿يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾، أي ممن اتقى الله في فعله ذلك.

﴿لَيْنٌ بَسَطَ إِلَىٰ يَدِكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ إِنَّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٨).

يقول له أخو الرجل الصالح الذي تقبل الله قربانه لتقواه حين ترعده أخوه بالقتل عن غير ما ذنب منه إليه ﴿لَيْنٌ بَسَطَ إِلَىٰ يَدِكَ...﴾ أي لا أقابلك على صنيعك الفاسد بمثله فأكون وأنت سواء في الخطيئة ﴿إِنَّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ أي من أن أصنع كما تريد أن تصنع، بل اصبر واحتسب. قال عبد الله بن عمرو: وأيم الله إن كان لأشد الرجلين، ولكن منعه التحرج، يعني الورع. عن بشر بن سعيد أن سعد بن أبي وقاص قال عند فتنة عثمان: أشهد أن رسول الله ﷺ قال: «ستكون فتنة القاعد فيها خير من القائم، والقائم خير من الماشي، والماشي خير من الساعي» قال: أفرأيت إن دخل على بيتي فبسط يده إلي ليقتلني فقال: «كن كابن آدم» رواه الإمام أحمد والترمذي وفي رواية وتلا ﴿لَيْنٌ بَسَطَ إِلَىٰ يَدِكَ...﴾.

﴿إِنَّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ (١٩).  
أي إني أريد أن تنصرف بخطيئتك في قتلك إياي، وذلك هو معنى قوله ﴿إِنَّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي﴾ وأما معنى ﴿وَإِثْمِكَ﴾ فهو إثمه يعني قتله، وذلك كمعصية الله عز وجل في أعماله سواء. أي تتحمل إثمك وإثمك ﴿فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ...﴾ قال ابن عباس: خوفه بالنار فلم ينته ولم ينزجر.

﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٢٠).

أي فحسنت وسولت له نفسه وشجعتة على قتل أخيه فقتله أي بعد هذه الموعظة وهذا الزجر . وقوله ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ أي في الدنيا والآخرة ، وأي خسارة أعظم من هذه؟ روى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: « لا تقتل نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها ، لأنه كان أول من سن القتل » وقد أخرجه الجماعة سوى أبي داود .

﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِي سَوْءَ أَخِيهِ قَالَ يُنَوِّتُكَ أَعْجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُورِي سَوْءَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ (٢١).

بعث الله غرابين أخوين فاقتلا فقتل أحدهما صاحبه فحفر له ، ثم حثى عليه ، فلما رآه قال : ﴿يُنَوِّتُكَ أَعْجَزْتُ أَنْ أَكُونَ . . .﴾ في الحديث «إن ابن آدم ﷺ ضرب لهذه الأمة مثلاً فخذوا بالخير منها» .

﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعَدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لُمُسْرِفُونَ﴾ (٢٢).

يقول تعالى من أجل قتل ابن آدم أخاه ظلماً وعدواناً ﴿كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي شرعنا لهم وأعلمناهم ﴿أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ . . .﴾ أي من قتل نفساً بغير سبب من قصاص أو فساد في الأرض ، واستحل قتلها بلا سبب ، ولا جناية ، فكأنما قتل الناس جميعاً ، لأنه لا فرق عنده بين نفس ونفس ، ومن أحيها أي حرم قتلها واعتقد ذلك فقد سلم الناس كلهم منه بهذا الاعتبار ، ولهذا قال : ﴿فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ قال سعيد بن جبير: من استحل دم مسلم فكأنما استحل دماء الناس جميعاً ، ومن حرم دم مسلم فكأنما حرم دماء الناس جميعاً . وقوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي بالحجج والبراهين والدلائل الواضحة ﴿ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعَدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لُمُسْرِفُونَ﴾ وهذا توبيخ لهم وتوبيخ على ارتكابهم المحارم بعد علمهم بها .

﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (٢٣).

﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ . . .﴾ المحاربة هي المضادة والمخالفة ، وهي صادقة على الكفر وعلى قطع الطريق وإخافة السبيل ، وكذا الإفساد في الأرض يطلق على أنواع من الشر . والآية عامة في المشركين وغيرهم ممن ارتكب هذه الصفات . روى البخاري ومسلم من حديث أبي قلابة عن أنس أن نفرأ من عكل ثمانية قدموا على رسول الله ﷺ فبايعوه على الإسلام فاستوضحوا

المدينة، وسقمت أجسامهم فشكوا إلى رسول الله ﷺ ذلك فقال: «ألا تخرجون مع راعينا في إبله فتصيبوا من أوالها وألبانها؟» فقالوا: بلى، فخرجوا فشريوا من أوالها وألبانها فصحوا، فقتلوا الراعي، وطردهوا الإبل، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فبعث في آثارهم فأدركوا فجيء بهم، فأمر بهم ففقطعت أيديهم وأرجلهم، وسمرت أعينهم ثم نبذوا في الشمس حتى ماتوا» هذا لفظ مسلم. وقوله تعالى: ﴿أَنْ يَمُتُوا أَوْ يُكَلِّبُوا...﴾ عن ابن عباس فإمام المسلمين بالخيار إن شاء قتل، وإن شاء صلب، وإن شاء قطع يده ورجله، ومسند هذا أنه ظاهر ﴿أَوْ﴾ للتخيير. ﴿أَوْ يُنْفَوْنَ مِنَ الْأَرْضِ﴾ أن ينفى من بلده إلى بلد آخر. ﴿ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا...﴾ أي هذا الذي ذكرته من قتلهم ومن صلبهم وقطع أيديهم وأرجلهم من خلال ونفيهم خزي لهم بين الناس في هذه الحياة الدنيا مع ما ادخر الله لهم من العذاب العظيم يوم القيامة. وقال الجمهور: هذه الآية منزلة على أحوال كما قال أبو عبد الله الشافعي، إذا قتلوا وأخذوا المال قتلوا وصلبوا، وإذا فعلوا ولم يأخذوا المال قتلوا ولم يصلبوا، وإذا أخذوا المال ولم يقتلوا قطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، وإذا أخافوا السبيل ولم يأخذوا المال نفوا من الأرض.

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّهُ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٢٤).

فإذا تابوا قبل القدرة عليهم فإنه يسقط عنهم انتحام القتل والصلب وقطع الرجل، وهل يسقط قطع اليد أم لا؟ فيه قولان للعلماء وظاهر الآية يقتضي سقوط الجميع، وعليه عمل الصحابة.

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٢٥).

يقول تعالى أمراً عباده المؤمنين بتقواه، وهي إذا قرنت بطاعته كان المراد بها الانكفاف عن المحارم وترك المنهيات، وقد قال بعدها: ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ أي تقربوا إليه بطاعته، والعمل بما يرضيه، والوسيلة هي التي يتوصل بها إلى تحصيل المقصود، والوسيلة أيضاً علم على أعلى منزلة في الجنة، وهي منزلة رسول الله ﷺ وداره في الجنة، وهي أقرب أمكنة الجنة إلى العرش وقد ثبت في صحيح البخاري عن رسول الله ﷺ «من قال حين يسمع النداء: اللهم رب هذه الدعوة التامة، والصلاة القائمة، آت محمداً الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته إلا حلت له الشفاعة يوم القيامة». وقوله: ﴿وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ لما أمرهم بترك المحارم، وفعل الطاعات أمرهم بقتال الأعداء من الكفار والمشركين الخارجين عن الطريق المستقيم، والتاركين للدين القويم، ورغبتهم في ذلك بالذي أعدّه للمجاهدين في سبيله يوم القيامة من الفلاح والسعادة العظيمة الخالدة المستمرة التي لا تبيد، ولا تحول، ولا تزول في الغرف العالية الرفيعة، الآمنة الحسنة مناظرها، الطيبة مساكنها التي من سكنها ينعم، لا يئأس، ويحيى لا يموت، لا تبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٣٦).

ثم أخبر تعالى بما أعد لأعدائه الكافرين من العذاب والنكال يوم القيامة فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا...﴾ أي لو أن أحدهم جاء يوم القيامة بملء الأرض ذهباً، وبمثله ليفتدي بذلك من عذاب الله الذي قد أحاط به، وتيقن وصوله إليه ما تقبل ذلك منه، بل لا مندوحة عنه، ولا محيص له، ولا مناص. ولهذا قال: ﴿وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي موجع.

﴿يُرِيدُونَ أَن يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ (٣٧).

أي فلا يزالون يريدون الخروج مما هم فيه من شدته وأليم مسه، ولا سبيل لهم إلى ذلك، كلما رفعهم اللهب فصاروا في أعلى جهنم ضربتهم الزبانية بمقامع من حديد فيردوهم إلى أسفلها كما قال تعالى ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يُخْرِجُوا مِنْهَا مِنْ غَيْرِ أُعِيدُوا فِيهَا﴾ [الحج: 22] ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ أي دائم مستمر، لا خروج لهم منها، ولا محيد لهم عنها.

﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا تَكْلَافًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٣٨).

يقول تعالى حاكماً وأمرأً بقطع يد السارق والسارقة ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ وقد ذهب بعض الفقهاء من أهل الظاهر إلى أنه متى سرق السارق شيئاً قطعت يده به سواء كان قليلاً أو كثيراً لعموم هذه الآية، فلم يعتبروا نصاباً ولا حرزاً، بل أخذوا بمجرد السرقة، وتمسكوا بما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «لعن الله السارق، يسرق البيضة فتقطع يده، ويسرق الحبل فتقطع يده» وأما الجمهور فاعتبروا النصاب في السرقة، وإن كان قد وقع بينهم الخلاف في قدره. وقد أجاب الجمهور عن الحديث: «يسرق البيضة فتقطع يده...» بأنه منسوخ، أو أنه مؤول ببيضة الحديد، وحبل السفن، أو أن هذه وسيلة إلى التدرج في السرقة من القليل إلى الكثير الذي تقطع فيه يده، ويحتمل أنه خرج مخرج الأخبار عما كان عليه الأمر في الجاهلية حيث كانوا يقطعون في القليل والكثير. ﴿جِزَاءً بِمَا كَسَبَا...﴾ أي مجازاة على صنيعهما السيئ في أخذهما أموال الناس بأيديهم فناسب أن يقطع ما استعاننا به في ذلك تنكيلاً من الله بهما على ارتكاب ذلك ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ في أمره ونهيه وشرعه وقدره.

﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٣٩).

أي من تاب بعد سرقة وأتاب إلى الله يتوب عليه فيما بينه وبينه، فأما أموال الناس فلا بد من ردها إليهم، أو بدلها عند الجمهور وقال أبو حنيفة: متى قطع وقد تلفت يده فإنه لا يرد بدلها. روى ابن جرير أن امرأة سرت حلياً فجاء الذين سرتهم فقالوا: يا رسول الله، سرتنا هذه المرأة،

فقال رسول الله ﷺ: «اقطعوا يدها اليمنى» فقالت المرأة: هل من توبة؟ فقال رسول الله ﷺ: «أنت اليوم من خطيبتك كيوم ولدتك أمك» فأنزل الله عز وجل ﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ...﴾.

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَعْفُو لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

أي هو المالك لجميع ذلك، الحاكم فيه، الذي لا معقب لحكمه، وهو الفعال لما يريد.

﴿يَأْتِيهَا الرِّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسْكِرُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا وَسَمَّعُونَ لِلْكَذِبِ سَمْعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَظْهِرْ قُلُوبَهُمْ هُمْ فِي الدُّنْيَا حَزَىٰ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

نزلت هذه الآيات الكريمت إلى رقم (٤٤) في المسارعين في الكفر، الخارجين عن طاعة الله ورسوله، المقدمين آراءهم وأهواءهم على شرائع الله عز وجل ﴿مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي أظهروا الإيمان بألسنتهم وقلوبهم خراب خاوية منه، وهؤلاء هم المنافقون ﴿وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾ أعداء الإسلام وأهله، وهؤلاء كلهم ﴿سَمَّعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ أي مستجيبون له، منفعلون عنه ﴿سَمَّعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ﴾ أي يستجيبون لأقوام آخرين، لا يأتون مجلسك يا محمد ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾ أي يتأولونه على غير تأويله ويبدلونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون ﴿يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا﴾ قيل: نزلت في قوم من اليهود قتلوا قتيلاً وقالوا: تعالوا حتى نتحاكم إلى محمد، فإن حكم بالدية فاقبلوه، وإن حكم بالقصاص فلا تسمعوا منه، والصحيح أنها نزلت في اليهوديين الذين زنيا، وكانوا قد بدلوا كتاب الله الذي بأيديهم من الأمر برجم من أحسن فحرفوه، واصطلحوا فيما بينهم على الجلد مائة جلدة، والتحميم والاركاب على حمارين مقلوبين، فلما وقعت تلك الكائنة بعد الهجرة قالوا: فيما بينهم: تعالوا حتى نتحاكم إليه، فإن حكم بالجلد والتحميم فخذوا عنه، واجعلوه حجة بينكم وبين الله، ويكون نبي من أنبياء الله قد حكم بينكم بذلك، وإن حكم بالرجم فلا تتبعوه في ذلك. ولهذا قالوا ﴿إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا﴾ أي الجلد والتحميم ﴿فَخُذُوهُ﴾ أي اقبلوه ﴿وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا﴾ أي من قبوله واتباعه. قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً...﴾.

﴿سَمَّعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ

تُعْرَضُ عَنْهُمْ فَمَا كَانَ يَصْرُوكَ شَيْئًا وَإِنِ حَكَمْتَ فَأَحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ  
الْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ .

﴿سَمِعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ أي للباطل . ﴿أَكَلُونَ لِلشَّحْوَةِ﴾ أي الحرام، وهو الرشوة، ومن كانت هذه صفته كيف يظهر الله قلبه، وأنى يستجيب له؟ ﴿فَإِنِ جَاءُوكَ﴾ أي يتحاكمون إليك ﴿فَأَحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرَضْ عَنْهُمْ وَإِنِ تُعْرَضُ عَنْهُمْ فَمَا كَانَ يَصْرُوكَ شَيْئًا﴾ أي فلا عليك أن لا تحكم بينهم، لأنهم لا يقصدون بتحاكمهم إليك اتباع الحق، بل ما يوافق أهواءهم . ﴿وَإِنِ حَكَمْتَ فَأَحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾ أي بالحق والعدل، وإن كانوا ظلمة خارجين عن طريق العدل .

﴿وَكَيْفَ يُحْكِمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّورَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أَوْلَيْكَ  
بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٤٣﴾ .

ثم قال تعالى منكرًا عليهم في آرائهم الفاسدة، ومقاصدهم الزائفة في تركهم ما يعتقدون صحته من الكتاب الذي بأيديهم الذي يزعمون أنهم مأمورون بالتمسك به أبدًا، ثم خرجوا عن حكمه، وعدلوا إلى غيره مما يعتقدون في نفس الأمر بطلانه وعدم لزومه لهم فقال: ﴿وَكَيْفَ يُحْكِمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّورَةُ...﴾ .

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّورَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ بِحُكْمِهَا الْيَتِيمَاتُ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا  
وَالرَّزِينَيُونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتَحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّكَاسَ  
وَآخْشَوْنِ وَلَا تَشْرَوْا بِبَيْتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ ﴿٤٤﴾ .  
ثم مدح التوراة التي أنزلها على عبده ورسوله موسى بن عمران فقال: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّورَةَ فِيهَا هُدًى  
وَنُورٌ بِحُكْمِهَا الْيَتِيمَاتُ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا﴾ أي لا يخرجون عن حكمها، ولا يبدلونها ولا  
يحرّفونها . ﴿وَالرَّزِينَيُونَ وَالْأَحْبَارُ﴾ أي وكذلك الربانيون منهم، وهم العلماء العباد، والأحبار وهم  
العلماء ﴿بِمَا اسْتَحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ﴾ أي بما استودعوا من كتاب الله الذي أمروا أن يظفروه ويعملوا  
به ﴿وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّكَاسَ وَآخْشَوْنِ﴾ أي لا تخافوا منهم، وخافوا مني ﴿وَلَا  
تَشْرَوْا بِبَيْتِي ثَمَنًا قَلِيلًا...﴾ عن ابن عباس: من جحد ما أنزل الله فقد كفر، ومن أقر به ولم يحكم  
به فهو ظالم فاسق . رواه ابن جرير . ثم اختار أن الآية المراد بها أهل الكتاب، أو من جحد حكم الله  
المنزل في الكتاب ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ عن ابن عباس قال: ليس بالكفر الذي تذهبون إليه،  
وعن طاوس قال: ليس بكفر ينقل عن الله .

﴿وَكَبَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ  
وَالذَّنَّ بِالذَّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصًا فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ  
اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ ﴿٤٥﴾ .

وهذا أيضاً مما وبخت به اليهود، وقرعوا عليه. فإن عندهم في نص التوراة أن النفس بالنفس، وهم يخالفون حكم ذلك عمداً وعناداً، ويقيدون النصري من القرطي، ولا يقيدون القرطي من النصري، بل يعدلون إلى الدية، كما خالفوا حكم التوراة المنصوص عندهم في رجم الزاني المحصن، وعدلوا إلى ما اصطلحوه عليه من الجلد والتحميم والاشهار، ولهذا قال هنا: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ لأنهم جحدوا حكم الله قصداً منهم وعناداً وعمداً. وقال هنا: ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ لأنهم لم ينصفوا المظلوم من الظالم في الأمر الذي أمر الله بالعدل والتسوية بين الجميع فيه فخالفوا وظلموا وتعدوا على بعضهم. وقد استدل بقوله تعالى ﴿وَكُنَّا عَلَيْهِمْ بِمَا أَنزَلْنَا مِنَ الْكِتَابِ بِالنَّفْسِ . . .﴾ كثير من الأصوليين والفقهاء على أن شرع من قبلنا شرع لنا. وقوله تعالى: ﴿وَالْجُرُوحُ قِصَاصٌ﴾ عن ابن عباس قال: تقتل النفس بالنفس، وتفقأ العين بالعين، ويقطع الأنف بالأنف، وتنزع السن بالسن، وتقتص الجراح بالجراح. ﴿فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ﴾ يقول: فمن عفا عنه وتصدق عليه فهو كفارة للمطلوب، وأجر للطالب، ويهدم عنه من ذنوبه بقدر ما تصدق به. وفي الحديث «من تصدق بدم فما دونه فهو كفارة له من يوم ولد إلى أن يموت».

﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَرِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ ۖ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ ۖ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾﴾

يقول تعالى ﴿وَقَفَّيْنَا﴾ أي وأتبعنا ﴿عَلَىٰ آثَرِهِم﴾ يعني بني إسرائيل ﴿بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ﴾ أي مؤمناً بها، حاكماً بما فيها ﴿وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ أي هدى إلى الحق، ونور يستضاء به في إزالة الشبهات، وحل المشكلات ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ﴾ أي متبعاً لها غير مخالف لما فيها إلا في القليل مما بين لبني إسرائيل بعض ما كانوا يختلفون فيه كما قال تعالى إخباراً عن المسيح أنه قال لبني إسرائيل ﴿وَلَأُحَدِّثْ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: 50] ولهذا كان المشهور من قول العلماء أن الإنجيل نسخ بعض أحكام التوراة. وقوله تعالى: ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي وجعلنا الإنجيل هدى يهتدى به، وموعظة أي زاجراً عن ارتكاب المحارم، والمآثم. ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي لمن اتقى الله وخاف وعيده وعقابه.

﴿وَلِيَحْكُمَ أَهْلَ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ ۖ وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾ .

أي ليؤمنوا بجميع ما فيه، وليقيموا ما أمروا به فيه، ومما فيه البشارة ببعثه محمد، والأمر باتباعه وتصديقه إذا وجد، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَتَّخِذِ الْكَافِرُونَ عَلَيْكُمْ سَبِيحًا وَيَلْعَنُونَ أَيُّ النَّاسِ أَعْدَىٰ لِلَّذِينَ إِتَّخَذُوا آلَ الْإِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۗ قُلْ سَبُّوا آلَ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَدُوٌّ لِّمَا بُرِّئُوا إِلَيْهِمْ ۗ وَسَبُّ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۗ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا مَّجْنُونًا ۗ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْفَاسِقِينَ﴾ [آل عمران: 60-61]. ولهذا قال ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أي الخارجون عن طاعة ربهم، المائلون إلى الباطل، التاركون للحق. وهذه الآية نازلة في النصارى وهو ظاهر من السياق.

﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَأَسْتَفِئُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾﴾ .

لما ذكر التوراة التي أنزلها على موسى كلميه ومدحها، وأثنى عليها، وأمر باتباعها حيث كانت سائفة الاتباع، وذكر الإنجيل ومدحه، وأمر أهله بإقامته، واتباع ما فيه كما تقدم بيانه شرع في ذكر القرآن العظيم الذي أنزله على عبده ورسوله الكريم فقال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ أي بالصدق الذي لا ريب فيه أنه من عند الله ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ﴾ أي من الكتب المتقدمة المتضمنة ذكره ومدحه، وأنه سينزل من عند الله على عبده ورسوله محمد ﷺ، فكان نزوله كما أخبرت به مما زادها صدقاً عند حاملها من ذوي البصائر الذين انقادوا لأمر الله واتبعوا شرائع الله، وصدقوا رسل الله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُسْئَلُونَ عَلَيْهِمْ يَمْجُرُونَ لِلْآفَاقِ سُجْدًا ﴿١٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٨﴾﴾ [الإسراء: 107، 108] أي إن كان ما وعدنا الله على السنة رسله المتقدمة من مجيء محمد ﷺ لمفعولاً أي لكائنات لا محالة ولا بد. وقوله تعالى ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ المهيمن: الأمين، والقرآن أمين على كل كتاب قبله، فما وافقه منها فهو حق، وما خالفه منها فهو باطل. أو مهيمناً: شهيداً، أو حاكماً على ما قبله من الكتب، وهذه الأقوال متقاربة، فقد جعل الله هذا الكتاب العظيم الذي أنزله آخر الكتب وخاتمتها، أشملها وأعظمها وأكملها، حيث جمع فيه محاسن ما قبله، وزاده من الكمالات ما ليس في غيره، فلهذا جعله شاهداً وأميناً وحاكماً عليها كلها، وتكفل تعالى بحفظه بنفسه الكريمة فقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر: 9] وقوله تعالى: ﴿فَأَحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ أي فاحكمم يا محمد بين الناس عربهم وعجمهم، أميهم وكتابيهم بما أنزل الله إليك في هذا الكتاب العظيم. وقوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ أي آراءهم التي اصطلحوا عليها وتركوا بسببها ما أنزل الله على رسوله. ﴿عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ أي لا تنصرف عن الحق الذي أمرك الله به إلى أهواء هؤلاء من الجهلة الأشقياء. وقوله: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ أي سيلاً وسنة، ففي التوراة شريعة، وفي الإنجيل شريعة، وفي الفرقان شريعة، يحل الله فيها ما يشاء ويحرم ما يشاء، ليعلم من يطيعه ممن يعصيه، والدين الذي لا يقبل الله غيره التوحيد والإخلاص لله. ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أي لو شاء لجمع الناس كلهم على دين واحد وشريعة واحدة، لا ينسخ شيء منها، ولكنه تعالى شرع لكل رسول شريعة على حدة، ثم نسخها، أو بعضها برسالة الآخر الذي بعده، حتى نسخ الجميع بما بعث به عبده ورسوله محمداً ﷺ الذي ابتعثه إلى أهل الأرض قاطبة، وجعله خاتم الأنبياء كلهم. وقوله: ﴿وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ أي أنه تعالى شرع الشرائع المختلفة ليختبر عباده فيما شرع لهم، ويبيهم أو يعاقبهم

على طاعته ومعصيته بما فعلوه أو عزموا عليه من ذلك كله. ﴿فَأَسْتَفِئُوا الْخَيْرَاتِ﴾ وهي طاعة الله، واتباع شرعه الذي جعله ناسخاً لما قبله، والتصديق بكتابه القرآن الذي هو آخر كتاب أنزله. ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ أي معادكم أيها الناس ومصيركم إليه يوم القيامة ﴿فَيُنِذِرُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخَلِّفُونَ﴾ أي فيخبركم بما اختلفتم فيه من الحق، فيجزى الصادقين بصدقهم ويعذب الكافرين الجاحدين المكذبين بالحق العادلين عنه إلى غيره بلا دليل ولا برهان، بل هم معاندون للبراهين القاطعة، والحجج البالغة والأدلة الدامغة.

﴿وَأَن أٰحْكَمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَأَحْذَرَهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْتُمْ أَننَّآ يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِن كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفٰسِقُونَ﴾ (٤٩).  
 ﴿وَأَن أٰحْكَمَ بَيْنَهُمْ...﴾ تأكيد لما تقدم من الأمر بذلك، والنهي عن خلافه. ﴿وَأَحْذَرَهُمْ...﴾ أي واحذر أعداءك اليهود أن يدلسوا عليك الحق فيما ينهونه إليك من الأمور فلا تغتر بهم، فإنهم كذبة كفرة، خونة ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ أي عما تحكم به بينهم من الحق وخالفوا شرع الله ﴿فَاعْلَمْتُمْ أَننَّآ يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ أي فاعلم أن ذلك كائن عن قدرة الله وحكمته فيهم، أن يصرفهم عن الهدى لما لهم من الذنوب السالفة التي اقتضت إضلالهم ونكالهم ﴿وَإِن كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفٰسِقُونَ﴾ أي أن أكثر الناس لخارجون عن طاعة ربهم مخالفون للحق، ناكبون عنه كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: 103].

﴿أَفَحُكْمَ الْجَهْلِِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَن أَحْسَنُ مِّنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُؤْفِقُونَ﴾ (٥٠).

ينكر تعالى على من خرج عن حكم الله الحكم المشتمل على كل خير، الناهي عن كل شر، وعدل إلى ما سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله، كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات مما يضعونها بأرائهم وأهوائهم قال تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَهْلِِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ أي يبتغون ويريدون، وعن حكم الله يعدلون؟ ﴿وَمَن أَحْسَنُ مِّنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُؤْفِقُونَ﴾ أي ومن أعدل من الله في حكمه لمن عقل عن الله شرعه، وآمن به، وأيقن، وعلم أن الله أحكم الحاكمين، وأرحم بخلقه من الوالدة بولدها، فإنه تعالى هو العالم بكل شيء، القادر على كل شيء، العادل في كل شيء. روى الطبراني عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «أبغض الناس إلى الله عز وجل من يتبغي في الإسلام سنة الجاهلية، وطالب دم امرئ بغير حق ليريق دمه» وروى البخاري عن أبي اليمان بإسناده نحوه بزيادة.

﴿يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصْرٰنِيَّ ءَأَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ مِنكُمْ فَإِنَّهُ مِنَّهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (٥١).

ينهى تبارك وتعالى عباده والمؤمنين عن موالاته اليهود والنصارى الذين هم أعداء الإسلام وأهله

قاتلهم الله، ثم أخبر أن بعضهم أولياء بعض، ثم تهدد وتوعد من يتعاطى ذلك فقال: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ عن عياض أن عمر أمر أبا موسى الأشعري أن يرفع إليه ما أخذ وما أعطى في أديم واحد، وكان له كاتب نصراني فرفع إليه ذلك، فعجب عمر، وقال: إن هذا لحفيظ، هل أنت قارىء لنا كتاباً في المسجد جاء من الشام؟ فقال: إنه لا يستطيع، فقال عمر: أجنب هو؟ قال: لا، بل نصراني، قال: فانتهرني وضرب فخذي ثم قال: أخرجوه، ثم قرأ ﴿يَتَابِعُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَرَىٰ أَوْلِيَاءَ...﴾ قال عكرمة: نزلت في أبي لبابة بن عبد المنذر حين بعثه رسول الله ﷺ إلى بني قريظة فسأله ماذا هو صانع بنا؟ فأشار بيده إلى حلقه، أي إنه الذبح، وقيل: نزلت في عبد الله بن أبي ابن سلول فقد جاء عبادة بن الصامت إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إن لي موالي من يهود كثير عددهم، وإني أبرأ إلى الله ورسوله من ولاية يهود، وأتولى الله ورسوله، فقال عبد الله بن أبي ابن سلول: إني رجل أخاف الدوائر، لا أبرأ من ولاية موالي، فقال رسول الله ﷺ لعبد الله بن أبي: يا أبا الحباب، ما بخلت به من ولاية يهود على عبادة بن الصامت فهو لك دونه» قال: قد قبلت، فأنزل الله عز وجل ﴿يَتَابِعُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَرَىٰ أَوْلِيَاءَ...﴾ الآيتين.

﴿فَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَحْشَىٰ أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِنْدِهِ فَيُضْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرُوا فِي أَنفُسِهِمْ تَدْمِيَةً﴾ (٥١).

﴿مَرَضٌ﴾ أي شك وريب ونفاق ﴿يُسْرِعُونَ فِيهِمْ﴾ أي يبادرون إلى موالاتهم ومودتهم في الباطن والظاهر ﴿يَقُولُونَ نَحْشَىٰ أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾ أي يتأولون في مودتهم وموالاتهم أنهم يخشون أن يقع أمر من ظفر الكافرين بالمسلمين فتكون لهم آياد عند اليهود والنصارى فينفعهم ذلك عند ذلك. قال تعالى: ﴿فَعَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ﴾ يعني فتح مكة، أو القضاء والفصل. ﴿أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِنْدِهِ﴾ يعني ضرب الجزية على اليهود ﴿فَيُضْبِحُوا﴾ يعني الذين والوا اليهود والنصارى من المنافقين. ﴿عَلَىٰ مَا أَسْرُوا فِي أَنفُسِهِمْ﴾ من الموالات نادمين، أي على ما كان منهم مما لم يجد عنهم شيئاً، ولا دفع عنهم محذوراً، بل كان عين المفسدة، فإنهم فضحوا وأظهر الله أمرهم في الدنيا لعباده المؤمنين بعد أن كانوا مستورين لا يدري كيف حالهم، فلما انعقدت الأسباب الفاضحة لهم تبين أمرهم لعباد الله المؤمنين فتعجبوا منهم كيف كانوا يظهرون أنهم من المؤمنين ويحلفون على ذلك، ولذلك قال:

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَهْتُوا لَوْلَا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ جِهَدَ أَيْمَانِهِمْ لَإِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتِ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ﴾ (٥٢) يَتَابِعُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَن رَّبَّنَا مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (٥٣).

يقول الله تعالى مخبراً عن قدرته العظيمة إنه من تولى عن نصرة دينه، وإقامة شريعته، فإن الله يستبدل به من هو خير لها منه، وأشد منعة، وأقوم سبيلاً، كما قال: ﴿وَأَيُّ قَوْمٍ سَابَّكَ اللَّهُ تَبَّ عَلَيْهِمْ إِنَّهُمْ يَكْفُرُونَ﴾ [محمد: 38] وقال ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ﴾ [النساء: 133] وقال ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾﴾ [إبراهيم: 19، 20] أي بممتنع ولا صعب. وقوله تعالى: ﴿مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ﴾ أي يرجع عن الحق إلى الباطل. ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ عن أبي موسى الأشعري قال: لما نزلت ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ...﴾ قال رسول الله ﷺ: «هم قوم هذا» رواه ابن أبي حاتم، ورواه ابن جرير بنحوه. وقوله تعالى: ﴿أَذَلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعْرَفُ عَلَى الْكٰفِرِينَ﴾ هذه صفات المؤمنين الكامل أن يكون أحدهم متواضعاً لأخيه ووليه، متعزلاً على خصمه وعدوه كما قال تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكٰفِرِينَ رِجْمًا بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: 29] وقوله عز وجل ﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِبٍ﴾ أي لا يرددهم عما هم فيه من طاعة الله، وإقامة الحدود، وقاتل أعدائه، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، لا يرددهم عن ذلك راد، ولا يصددهم عنه صاد، ولا يحبك فيهم لوم لائمه، ولا عدل عادل. عن أبي ذر قال: أمرني خليلي ﷺ بسبع: أمرني بحب المساكين، والدنو منهم، وأمرني أن أنظر إلى من هو دوني، ولا أنظر إلى من هو فوقني، وأمرني أن أصل الرحم، وإن أدبرت، وأمرني أن لا أسأل أحداً شيئاً، وأمرني أن أقول الحق وإن كان مرأى، وأمرني أن لا أخاف في الله لومة لائم، وأمرني أن أكثر من قول لا حول ولا قوة إلا بالله، فإنهم من كثر تحت العرش. رواه الإمام أحمد. وعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا لا يمنعن أحدكم رهبة الناس أن يقول بحق إذا رآه، أو شهده، فإنه لا يقرب من أجل، ولا يباعد من رزق أن يقول بحق أو أن يذكر بعظيم». تفرد به الإمام أحمد. وثبت في الصحيح «ما ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه» قالوا: وكيف يذل نفسه يا رسول الله؟ قال: «يتحمل من البلاء ما لا يطيق» ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي من اتصف بهذه الصفات فإنما هو من فضل الله عليه وتوفيقه له ﴿وَاللَّهُ وَسِعَ عَلَيْهِ﴾ أي واسع الفضل عليهم بمن يستحق ذلك ممن يحرمه إياه.

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾﴾ .

أي ليس اليهود بأوليائكم، بل ولايتكم راجعة إلى الله ورسوله والمؤمنين ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ أي المؤمنون المتصفون بهذه الصفات من إقام الصلاة التي هي أكبر أركان الإسلام، وهي له وحده لا شريك له. وإيتاء الزكاة التي هي حق المخلوقين، ومساعدة المحتاجين من الضعفاء والمساكين.

﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾ .

﴿فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغٰلِبُونَ﴾ هو كقوله تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ [المجادلة: 21] فكل من رضي بولاية الله ورسوله والمؤمنين فهو مفلح في الدنيا والآخرة ومنصور في الدنيا والآخرة، وهذه

الآيات نزلت في عبادة بن الصامت حين تبرأ من حلف اليهود، ورضي بولاية الله ورسوله والمؤمنين .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُؤًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكَفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُفْرَكُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ .

هذا تفسير من موالات أعداء الإسلام وأهله من الكتابيين والمشركين الذين يتخذون أفضل ما يعمله العاملون، وهي شرائع الإسلام المطهرة المحكمة المشتملة على كل خير دينوي وأخروي يتخذونها ﴿هُزُؤًا﴾ يستهزئون بها ﴿وَلَعِبًا﴾ يعتقدون أنها نوع من اللعب في نظرهم الفاسد، وفكرهم البارد، والمراد بالكفار هنا المشركون. وقوله ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُفْرَكُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي اتقوا الله أن تتخذوا هؤلاء الأعداء لكم ولدينكم أولياء إن كنتم مؤمنين بشرع الله الذي اتخذه هؤلاء هزواً ولعباً.

﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُؤًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾﴾ .

أي وكذلك إذا أذنتم داعين إلى الصلاة التي هي أفضل الأعمال لمن يعقل ويعلم من ذوي الأبواب. ﴿اتَّخَذُوهَا هُزُؤًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ معاني عبادة الله وشرائعه، وهذه صفات أتباع الشيطان الذي إذا سمع الأذان أدبر وله حصاص - أي خراط - حتى لا يسمع التأذين، فإذا قضى التأذين أقبل، فإذا ثوب للصلاة أدبر، فإذا قضى التثويب أقبل حتى يخطر بين المرء وقلبه فيقول: اذكر كذا، اذكر كذا لما لم يكن يذكر حتى يظل الرجل لا يدرى كم صلى، فإذا وجد أحدكم ذلك فليسجد سجدتين قبل السلام. متفق عليه.

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَقِيمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ ﴿٥٩﴾﴾ .

يقول تعالى قل يا محمد لهؤلاء الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً من أهل الكتاب: ﴿هَلْ تَقِيمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ...﴾ أي هل لكم علينا من مطعن أو عيب إلا هذا؟ وهذا ليس بعيب ولا مذمة. وهو كقوله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٦١﴾﴾ [البروج: 8] وكقوله ﴿وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ﴾ [التوبة: 74] وفي الحديث المتفق عليه: «ما ينقم ابن جميل إلا أن كان فقيراً فأغناه الله» ﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾ أي وآمنا بأن أكثركم فاسقون أي خارجون عن الطريق المستقيم.

﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرِّ مِمَّنْ ذَلِكَ مُتُوبَةٌ عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَعَظِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْفِرْدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٦٢﴾﴾ .

أي هل أخبركم بشر جزاء عند الله يوم القيامة مما تظنونونه بنا؟ وهم أنتم الذين هم متصفون بهذه

الصفة المفسرة بقوله: ﴿مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ﴾ أي أبعده من رحمته ﴿وَعَضِبَ عَلَيْهِ﴾ أي غضباً لا يرضى بعده أبداً ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾ عن ابن مسعود قال: سئل رسول الله ﷺ عن القردة والخنازير، أي مما مسخ الله؟ فقال: «إن الله لم يهلك قوماً، أو قال: لم يمسخ قوماً، فيجعل لهم نسلاً ولا عقباً، وإن القردة والخنازير كانت قبل ذلك» رواه مسلم من حديث سفيان الثوري ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ أي وجعل منهم من عبد الطاغوت، والمعنى أنكم يا أهل الكتاب الطاعنين في ديننا الذي هو توحيد الله، وإفراده بالعبادات دون ما سواه، كيف يصدر منكم هذا؟ وأنتم قد وجد منكم جميع ما ذكر. ولهذا قال: ﴿أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا﴾ أي مما تظنون بنا. ﴿وَأَصْلُ عَنِ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ وهذا من باب استعمال أفضل التفضيل فيما ليس في الطرف الآخر مشاركة كقوله تعالى: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان: 24].

﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ قَالُوا ءَأَمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ ءَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾ .  
 ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ قَالُوا ءَأَمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ . . .﴾ وهذه صفة المنافقين فيهم، يصانعون المؤمنين في الظاهر، قلوبهم منطوية على الكفر، ولهذا قال: ﴿وَقَدْ دَخَلُوا﴾ أي عندك يا محمد ﴿بِالْكَفْرِ﴾ أي مستصحبين الكفر في قلوبهم، ثم خرجوا، وهو كامن فيها، ولم ينتفعوا بما قد سمعوا منك من العلم، ولا نجعت فيهم المواعظ ولا الزواجر، ولهذا قال ﴿وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾ فخصهم به دون غيرهم. ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾ أي عالم بسرائرهم، وما تنطوي عليه ضمائرهم، وإن أظهروا لخلقه خلاف ذلك وتزينوا بما ليس فيهم، فإن الله عالم الغيب والشهادة، أعلم بهم منهم، وسيجزئهم على ذلك أتم الجزاء.

﴿وَرَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسِرُّونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتِ لَيْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ .  
 أي يبادرون إلى ذلك من تعاطي الإثم والمحارم، والاعتداء على الناس، وأكلهم أموالهم بالباطل ﴿لَيْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي لبس العمل كان عملهم، وبشس الاعتداء اعتداؤهم.

﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّوتَ وَالْأَحْبَابُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتِ لَيْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ .

يعني هلاً كان ينهاهم الربانيون والأحبار منهم عن تعاطي ذلك، والربانيون هم العلماء العمال أرباب الولايات عليهم، والأحبار هم العلماء فقط. ﴿لَيْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ يعني من تركهم ذلك. عن ابن عباس قال: ما في القرآن آية أشد توبيخاً من هذه الآية ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّوتَ وَالْأَحْبَابُ . . .﴾ وكذا قال الضحاك: ما في القرآن آية أخوف عندي منها، إنا لا ننهي. خطب علي بن أبي طالب فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس إنما هلك من كان قبلكم بركوبهم المعاصي، ولم ينههم الربانيون والأحبار، فلما تبادوا في المعاصي أخذتهم العقوبات، فمروا بالمعروف، وانها عن

المنكر قبل أن ينزل بكم مثل الذي نزل بهم، واعلموا أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يقطع رزقاً، ولا يقرب أجلاً. وفي الحديث «ما من قوم يكون بين أظهرهم من يعمل بالمعاصي، هم أعز منه وأمنع، ولم يغيروا إلا أصابهم الله منه بعذاب». رواه الإمام أحمد.

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَالْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعِدَاةَ وَالْبَغِضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَسَعُونَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾ .

يخبر تعالى عن اليهود لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة بأنهم وصفوه - تعالى الله علواً كبيراً - بأنه بخيل، كما وصفوه بأنه فقير، وهم أغنياء، وعبروا عن البخل بأن قالوا ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ أي بخيلة، والذي قال هذا: شاس بن قيس من اليهود. وقد رد الله عليهم ما قالوه، وقابلهم فيما اختلقوه وافتروه واثفكوه فقال ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾ وهكذا وقع لهم، فإن ما عندهم من البخل والحسد والجبن والذلة أمر عظيم كما قال تعالى: ﴿أَمْ لَمْ نَمُتْ نَمِيتٌ مِّنَ الْمَلِكِ فَإِذَا لَا يُوْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴿١٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ [النساء: 53، 54] ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ...﴾ أي بل هو الواسع الفضل، الجزيل العطاء، الذي ما من شيء إلا عنده خزائنه، وهو الذي ما يخلقه من نعمة فمنه وحده لا شريك له، الذي خلق لنا كل شيء مما نحتاج إليه، في ليلنا ونهارنا، وحضرنا وسفرنا، وفي جميع أحوالنا كما قال ﴿وَمَا آتَاكُمْ مِّنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّتَ الْإِنْسَانَ لِفَطُولٌ لَّعَلَّوْا كَفَّارًا ﴿١٤﴾﴾ [إبراهيم: 34] وفي الحديث «إن عين الله ملأى، لا يغيضها نفقة، سحاء الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض فإنه لم يغيض ما في عينيه - قال - وعرشه على الماء، وفي يده الأخرى الغيظ - أو القبض - يرفع ويخفض» وقوله ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا...﴾ أي يكون ما آتاك الله يا محمد من النعمة نقمة في حق أعدائك من اليهود وأشباههم، فكما يزداد به المؤمنون تصديقاً وعملاً صالحاً، وعلماً نافعاً، يزداد به الحاسدون لك، ولأمتك ﴿طُغْيَانًا﴾ وهو المبالغة والمجازرة للحد في الأشياء ﴿وَكُفْرًا﴾ أي تكديباً كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [إبراهيم: 44] وقال تعالى ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨١﴾﴾ [الإسراء: 82] وقوله تعالى: ﴿وَالْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعِدَاةَ وَالْبَغِضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ يعني أنه لا تجتمع قلوبهم، بل العداوة واقعة بين فرقهم: بعضهم في بعض دائماً، لأنهم لا يجتمعون على حق وقد خالفوك وكذبوك. ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ...﴾ أي كلما عقدوا أسباباً يكيدونك بها، وكلما أبرموا أموراً يحاربونك بها أبطلها الله، ورد كيدهم عليهم، وحق مكرهم السيء بهم ﴿وَسَعُونَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا...﴾ أي من سجتهم أنهم دائماً يسعون في الإفساد في الأرض والله لا يحب من هذه صفته.

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿١٥﴾﴾ .

أي لو أنهم آمنوا بالله ورسوله واتقوا ما كانوا يتعاطونه من المآثم والمحارم ﴿لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ...﴾ أي لأزّلنا عنهم المحذور، وأنلناهم المقصود.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ .

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ قال ابن عباس وغيره: هو القرآن. ﴿لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ أي لو أنهم عملوا بما في الكتب التي بأيديهم عن الأنبياء على ما هي عليه من غير تحريف ولا تبديل ولا تغيير لفادهم ذلك إلى اتباع الحق والعمل بمقتضى ما بعث الله به محمداً ﷺ، فإن كتبهم ناطقة بتصديقه، والأمر باتباعه حتماً لا محالة. وقوله ﴿لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ يعني بذلك كثرة الرزق النازل عليهم من السماء، والنابت لهم من الأرض، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الاعراف: 96] وقوله تعالى: ﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ...﴾ كقوله تعالى: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [الاعراف: 159].

﴿يَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ .

يقول تعالى مخاطباً عبده ورسوله محمداً ﷺ باسم الرسالة، وأمرأله بإبلاغ جميع ما أرسله الله به، وقد امتثل عليه أفضل الصلاة والسلام ذلك، وقام به أتم القيام، عن عائشة قالت: من حدثك أن محمداً كتم شيئاً مما أنزل الله عليه فقد كذب، وهو يقول ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ وفي الصحيحين عنها أيضاً قالت: «لو كان محمد كاتماً شيئاً من القرآن لكتّم هذه الآية ﴿وَتُخْفَىٰ فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتُخْفَىٰ النَّاسُ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَهُ﴾ [الأحزاب: 37] وقوله ﴿وَإِنْ لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ يعني إن كتمت آية مما أنزل إليك من ربك لم تبلغ رسالته. وقوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ أي بلغ أنت رسالتي وأنا حافظك وناصرك ومؤيدك على أعدائك ومظفرك بهم، فلا تخف ولا تحزن، فلن يصل أحد منهم إليك بسوء يؤذيك. قالت عائشة: كان النبي ﷺ يحرس حتى نزلت هذه الآية ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ قالت: فأخرج النبي ﷺ رأسه من القبة وقال: «يا أيها الناس انصرفوا، فقد عصمنا الله عز وجل». وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ أي بلغ أنت، والله الذي يهدي من يشاء، ويضل من يشاء.

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِن رَّبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾﴾ .

يقول تعالى: قل يا محمد ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ أي من الدين ﴿حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ أي حتى تؤمنوا بجميع ما بأيديكم من الكتب المنزلة من الله على الأنبياء، وتعملوا بما فيها، ومما فيها الإيمان بمحمد ﷺ، والأمر باتباعه ﷺ، والإيمان بمبعثه، والافتداء بشريعته. ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ أي فلا تحزن عليهم، ولا يهينك ذلك منهم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّالِحِينَ وَالنَّصَارَىٰ مِن ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلُوا صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾﴾ .

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ وهم المسلمون. ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ وهم حملة التوراة. ﴿وَالصَّالِحِينَ﴾ طائفة من النصارى والمجوس ليس لهم دين. والمقصود أن كل فرقة آمنت بالله وباليوم الآخر، وهو الميعاد والجزاء يوم الدين، وعملت صالحاً، ولا يكون ذلك كذلك حتى يكون موافقاً للشريعة المحمدية بعد إرسال صاحبها المبعوث إلى جميع الثقلين، فمن اتصف بذلك فلا خوف عليهم فيما يستقبلون، ولا على ما تركوه وراء ظهورهم، ولا هم يحزنون.

﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَرَأْسَنَّا إِلَيْهِمْ رُسُلًا كَلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُهُمْ فَرِيحًا كَذَبُوا وَفَرِيحًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾﴾ .

يذكر الله تعالى أنه أخذ العهود والمواثيق على بني إسرائيل على السمع والطاعة لله ولرسوله فنقضوا تلك العهود والمواثيق، واتبعوا آراءهم وأهواءهم، وقدموها على الشرائع، فما وافقهم منها قبلوه، وما خالفهم ردوه، ولهذا قال: ﴿كَلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ . . .﴾ .

﴿وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾﴾ .

﴿وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا﴾ أي وحسبوا أن لا يترتب لهم شر على ما صنعوا فترتب، وهو أنهم عموا عن الحق، وصموا، فلا يسمعون حقاً، ولا يبتدون إليه، ثم تاب الله عليهم، أي مما كانوا فيه ﴿ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرًا مِّنْهُمْ﴾ أي بعد ذلك ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ أي مطلع عليهم وعليم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الغواية منهم.

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصَارٍ ﴿٧٢﴾﴾ .

يقول تعالى حاكماً بتكفير فرق النصارى من الملكية واليعقوبية والنسطورية ممن قال منهم بأن المسيح هو الله - تعالى الله عن قولهم وتنزهه وتقدس علواً كبيراً - وأول كلمة نطق بها المسيح وهو صغير: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ [مریم: 30] ولم يقل: إني أنا الله، ولا ابن الله. وكذلك قال لهم في حال كهولته ونبوته أمراً لهم بعبادة الله ربه وربهم وحده لا شريك له، ولهذا قال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ بَنِيَّ إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُمْ مِنْ يُشْرِكُ بِاللَّهِ﴾ أي فيعبد معه غيره ﴿فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾ أي فقد أوجب له النار، وحرّم عليه الجنة كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: 48] ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ أي ما للظالمين عند الله ناصر ولا معين ولا منقذ مما هم فيه. في الصحيح أن النبي ﷺ بعث منادياً في الناس، إن الجنة لا يدخلها إلا نفس مسلمة، وفي لفظ مؤمنة.

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثَةٌ وَمَنْ مِنْ آلِهِ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٧٦).

وذلك قول النصارى بالأقانيم الثلاثة، وهو أقنوم الأب، وأقنوم الابن، وأقنوم الكلمة المنبثقة من الأب إلى الابن - تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً - قال ابن جرير وغيره: والطوائف الثلاثة من الملكية واليعقوبية والنسطورية تقول بهذه الأقانيم، وهم مختلفون فيها اختلافاً متبايناً. وقوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ أي ليس متعدداً، بل هو وحده لا شريك له، إله جميع الكائنات، وسائر الموجودات. ثم قال تعالى متوعداً لهم ومتهدداً ﴿وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ﴾ أي من هذا الافتراء والكذب ﴿لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي في الآخرة من الأغلال والنكال.

﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٧٧).

﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ...﴾ هذا من كرمه تعالى وجوده ولطفه ورحمته بخلقه مع هذا الذنب العظيم، وهذا الافتراء والكذب والافك، يدعوهم إلى التوبة والمغفرة، فكل من تاب إليه تاب عليه.

﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّلْعَامَ أُنظِرْ كَيْفَ بُنِيَتْ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْظِرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ (٧٥).

أي المسيح أسوة أمثاله من سائر المرسلين المتقدمين عليه، وأنه عبد من عباد الله ورسوله من رسله الكرام كما قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الزخرف: 59] وقوله ﴿وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ أي مؤمنة به مصدقة له، وهذا أعلى مقاماتها، فدل على أنها ليست نبية. وقوله ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّلْعَامَ﴾ أي يحتاجان إلى التغذية به وإلى خروجه منهما، فهما عبدان كسائر الناس، وليسا بالهين كما زعمت فرق النصارى الجهولة، عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم

القيامة. وقوله: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ بَيَّنَّتْ لَهُمُ الْآيَاتِ﴾ أي نوضحها ونظهرها. ﴿ثُمَّ أَنْظُرْ أَنَّى يُؤْتَوْنَكَ﴾ أي ثم انظر بعد هذا البيان والوضوح والجلاء أين يذهبون، وبأي قول يتمسكون، وإلى أي مذهب من الضلال يذهبون.

﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾﴾ .

يقول تعالى منكرًا على من عبد غيره من الأصنام والأنداد والأوثان، ومبينًا له أنها لا تستحق شيئًا من الإلهية فقد قال تعالى ﴿قُلْ﴾ أي يا محمد لهؤلاء العابدين غير الله من سائر فرق بني آدم، ودخل في ذلك النصارى وغيرهم ﴿أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ أي لا يقدر على دفع ضرر عنكم، ولا إيصال نفع إليكم. ﴿وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي السميع لأقوال عباده، العليم بكل شيء، فلم عدلتم عنه إلى عبادة جماد لا يسمع ولا يبصر، ولا يعلم شيئًا، ولا يملك ضررًا ولا نفعًا لغيره ولا لنفسه.

﴿قُلْ يَتَّهَلَّ السَّكِّبُ لَا تَعْلَمُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٧٧﴾﴾ .

﴿لَا تَعْلَمُوا فِي دِينِكُمْ﴾ أي لا تجاوزوا الحد في اتباع الحق، ولا تطروا من أمرتم بتعظيمه فتبالغوا فيه حتى تخرجوه عن حيز النبوة إلى مقام الإلهية كما صنعتهم في المسيح، وهو نبي من الأنبياء فجعلتموه إلهًا من دون الله، وما ذلك إلا لاقترانكم بشيوخكم الضلال الذين هم سلفكم ممن ضل قديمًا. ﴿وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ أي وخرجوا عن طريق الاستقامة والاعتدال إلى طريق الغواية والضلال.

﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾﴾ .

يخبر تعالى أنه لعن الكافرين من بني إسرائيل من دهر طويل فيما أنزله على داود نبيه ﷺ، وعلى لسان عيسى ابن مريم بسبب عصيانهم لله، واعتدائهم على خلقه، عن ابن عباس: لعنوا في التوراة والإنجيل وفي الزبور وفي الفرقان.

﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾ .

ثم بين حالهم فيما كانوا يعتمدونه في زمانهم فقال: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ...﴾ أي كان لا ينهى أحد منهم أحداً عن ارتكاب المآثم والمحارم، ثم ذمهم على ذلك ليحذر أن يرتكب مثل الذي ارتكبه، فقال: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ روى الإمام أحمد عن عبد الله قال: قال

رسول الله ﷺ: «لما وقعت بنو إسرائيل في المعاصي نهتهم علماءهم فلم ينتهوا، فجالسهم في مجالسهم، وواكلوهم وشاربوهم، فضرب الله قلوب بعضهم ببعض، ولعنهم على لسان داود وعيسى ابن مريم ﴿ذَلِكَ يَمَّا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ وكان رسول الله ﷺ متكئاً فجلس، فقال: «لا، والذي نفسي بيده حتى تأطروهم على الحق أطراً» وروى أبو داود عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل أن الرجل كان يلقي الرجل، فيقول: يا هذا اتق الله، ودع ما تصنع، فإنه لا يحل لك، ثم يلقاه من الغد، فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض، ثم قال: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ...﴾ إلى قوله ﴿فَنَسِفُونَ﴾ ثم قال: كلا والله، لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، ولتأخذن على يد الظالم، ولتأطرنه على الحق أطراً، أو تقصرنه على الحق قصراً» وكذا رواه الترمذي وابن ماجه.

﴿تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَئِن لَّمْ يَأْتِهِمُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِمْ آيَاتٌ مِنْ رَبِّكَ يَتَذَكَّرْنَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾<sup>(٨٠)</sup>

﴿تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني بذلك المنافقين. وقوله ﴿لَئِن لَّمْ يَأْتِهِمُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِمْ آيَاتٌ مِنْ رَبِّكَ يَتَذَكَّرْنَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ يعني بذلك موالاتهم للكافرين، وتركهم موالاته المؤمنين التي أعقبتهم نفاقاً في قلوبهم، وأسخطت الله عليهم سخطاً مستمراً إلى يوم ميادهم، ولهذا قال: ﴿أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ ثم أخبر عنهم فقال: ﴿وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ يعني يوم القيامة. روى ابن أبي حاتم عن رسول الله ﷺ قال: «يا معشر المسلمين، إياكم والزنا، فإن فيه ست خصال: ثلاثاً في الدنيا، وثلاثاً في الآخرة، فأما التي في الدنيا، فإنه يذهب البهاء، ويورث الفقر، وينقص العمر، وأما التي في الآخرة، فإنه يوجب سخط الرب، وسوء الحساب، والخلود في النار» ثم تلا رسول الله ﷺ ﴿لَئِن لَّمْ يَأْتِهِمُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِمْ آيَاتٌ مِنْ رَبِّكَ يَتَذَكَّرْنَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ ورواه ابن مردويه.

﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوا آلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَسِيفُونَ﴾<sup>(٨١)</sup>

أي لو آمنوا حق الإيمان بالله والرسول والقرآن لما ارتكبوا ما ارتكبه من موالاته الكافرين في الباطن، ومعاداة المؤمنين بالله والنبى وما أنزله إليه ﴿وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَسِيفُونَ﴾ أي خارجون عن طاعة الله ورسوله، مخالفون لآيات وحيه وتنزيله.

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرُوكَ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَاتِلُونَ رَسُولَ اللَّهِ وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾<sup>(٨٢)</sup>

قال سعيد بن جبيرة والسدي وغيرهما: نزلت في وفد بعثهم النجاشي إلى النبي ﷺ ليسمعوا كلامه، ويروا صفاته، فلما رأوه، وقرأ عليهم القرآن أسلموا وبكوا وخشعوا، ثم رجعوا إلى النجاشي فأخبروه. قوله تعالى ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ...﴾ وما ذاك إلا لأن كفر اليهود كفر وعناد وجود ومباهة للحق، وغمط للناس، وتنقص بحملة العلم، ولهذا قتلوا كثيراً من الأنبياء حتى هموا بقتل رسول الله ﷺ غير مرة، وسموه وسحروه، وألبوا عليه أشباههم من المشركين. وفي الحديث: «ما خلا يهودي بمسلم إلا هم بقتله» قوله تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً...﴾ أي الذين زعموا أنهم نصارى من أتباع المسيح، وعلى منهاج انجيله فيهم مودة للإسلام وأهله في الجملة، وما ذاك إلا لما في قلوبهم إذ كانوا على دين المسيح من الرقة والرافة كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ [الحديد: 27] وفي كتابهم: من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر، وليس القتال مشروعاً في ملتهم، ولهذا قال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قَتِيلِينَ وَرُكْبَانًا...﴾ أي يوجد فيهم القسيسون، وهم خطبائهم وعلمائهم، والرهبان جمع راهب وهو العابد مشتق من الرهبة، وهي الخوف.

﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَأَمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ (٨٢).

﴿مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ أي مما عندهم من البشارة ببعثة محمد ﷺ ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ أي مع من يشهد بصحة هذا ويؤمن به. أو مع محمد ﷺ وأمه، لأنهم هم الشاهدون له يشهدون لنبيهم أنه بلغ. وللرسول أنهم بلغوا.

﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾ (٨٤). هؤلاء كانوا كرايين أي فلاحين، قدموا مع جعفر بن أبي طالب من الحبشة، فلما قرأ رسول الله ﷺ عليهم القرآن آمنوا، وفاضت أعينهم، فقال رسول الله ﷺ: «لعلكم إذا رجعتم إلى أرضكم انتقلتم إلى دينكم؟» فقالوا: لن نتقل عن ديننا، فأنزل الله ذلك من قولهم ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ...﴾.

﴿فَأَثَبَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٨٥).

أي نجازاهم على إيمانهم وتصديقهم واعترافهم بالحق ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي ماكثين فيها أبداً لا يحولون ولا يزولون ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي في اتباعهم الحق، وانقادهم له حيث كان، وأين كان، ومع من كان.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ (٨٦).

ثم أخبر عن حال الأشقياء فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي جحدوا بها وخالفوها ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ أي هم أهلها، والداخلون بها.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحْزَمُوا طَبَيْتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ

الْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾﴾ .

في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أن ناساً من أصحاب رسول الله ﷺ سألوا أزواج النبي ﷺ عن عمله في السر، فقال بعضهم: لا آكل اللحم، وقال بعضهم: لا أتزوج النساء، وقال بعضهم: لا أنام على فراش، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «ما بال أقوام يقول أحدهم كذا وكذا، لكنني أصوم وأفطر، وأنام وأقوم، وآكل اللحم، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني» وعن ابن عباس أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إني إذا أكلت من هذا اللحم انتشرت للنساء، وإني حرمت علي اللحم فنزلت ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحْزَمُوا طَبَيْتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ...﴾ وقد ذهب جماعة من العلماء منهم الإمام أحمد بن حنبل إلى أن من حرم مأكلاً أو مشرباً أو ملبساً، أو شيئاً من الأشياء، فإنه يجب عليه بذلك كفارة يمين، كما إذا التزم تركه باليمين، فكذلك يؤاخذ بمجرد تحريمه على نفسه إلزاماً له بما التزمه، وذهب كثير من العلماء منهم الشافعي إلى أن من حرم مأكلاً أو ملبساً أو شيئاً ما عدا النساء أنه لا يحرم عليه، ولا كفارة عليه أيضاً. وقوله: ﴿وَلَا تَعْتَدُوا﴾ أي لا تبالغوا في التضييق على أنفسكم بتحريم المباحات عليكم، أو لا تعتدوا في تناول الحلال، بل خذوا منه بقدر كفايتكم وحاجتكم ولا تجاوزوا الحد فيه، كما قال تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِوْا﴾ [الأعراف: 31].

﴿وَكُلُوا مِنَّمَا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنشَأَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٨٨﴾ .

﴿حَلالًا طَيِّبًا﴾ أي في حال كونه حلالاً طيباً ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي في جميع أموركم، واتبعوا طاعته ورضوانه، واتركوا مخالفته وعصيانه.

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّرتَهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا نَطَعْتُمْ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفْرَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ﴿٨٩﴾ .

لغو اليمين قول الرجل في الكلام من غير قصد: لا والله، وبلى والله، وهذا مذهب الشافعي، وقيل: على غلبة الظن وهو قول أبي حنيفة وأحمد، والصحيح أنه اليمين من غير قصد بدليل قوله: ﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ﴾ أي بما صمتمت عليه منها وقصدتموها ﴿فَكَفَّرتَهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ﴾ يعني مما يجد من الفقراء ومن لا يجد ما يكفيه ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا نَطَعْتُمْ أَهْلِيكُمْ﴾ قال الشافعي: الواجب في كفارة اليمين مد بمد النبي ﷺ لكل مسكين ﴿أَوْ كِسْوَتُهُمْ﴾ قال الشافعي: لو

دفع إلى كل واحد من العشرة ما يصدق عليه اسم الكسوة من قميص أو سراويل أو إزار أو عمامة أو مقنعة أجزاء ذلك، واختلف أصحابه في القلنسوة هل تجزىء أم لا؟ على وجهين ﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ أخذ أبو حنيفة بإطلاقها، فقال: تجزىء الكافرة كما تجزىء المؤمنة، وقال الشافعي وآخرون: لا بد أن تكون مؤمنة، وأخذ تقييدها بالإيمان من كفارة القتل لاتحاد الموجب، وإن اختلف السبب. فإن لم يقدر المكلف على واحدة من هذه الخصال الثلاث كفر بصيام ثلاثة أيام، كما قال تعالى ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ﴾ ولا يجب متابعتها عند الإمام الشافعي، ويجب التتابع عند أبي حنيفة والحنابلة. ﴿ذَلِكَ كَفَّرَ أَيْمَانَكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾ أي هذه كفارة اليمين الشرعية ﴿وَأَحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ معناه: لا تتركوها بغير تكفير. ﴿كَذَلِكَ يبينُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾ أي يوضحها ويفسرهما.

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٩٦).

يقول تعالى ناهياً عباده المؤمنين عن تعاطي الخمر والميسر، وهو القمار، وعن علي رضي الله عنه أن الشطرنج من الميسر، وقيل: كل شيء من القمار فهو من الميسر حتى الكعاب والجوز والبيض التي تلعب بها الصبيان، وعن سعيد بن المسيب كان ميسر أهل الجاهلية بيع اللحم بالشاة والشاتين، وعن الأعرج قال: الميسر الضرب بالقداح على الأموال والثمار، وفي صحيح مسلم: «من لعب بالنردشير فكأنما صبح يده في لحم خنزير ودمه» وفي موطأ مالك ومسند أحمد «من لعب بالنرد فقد عصى الله ورسوله». وأما الشطرنج فقد قال عبد الله بن عمر: إنه شر من النرد، وعن علي هو من الميسر، ونص على تحريمه مالك وأبو حنيفة وأحمد، وكرهه الشافعي رحمهم الله. وأما الأنصاب فهي حجارة كانوا يذبحون قربانهم عندها، وأما الأزلام فقالوا أيضاً: هي القداح، كانوا يستقسمون بها. وقوله تعالى ﴿رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ أي سخط من عمل الشيطان، أو شر من عمل الشيطان ﴿فَاجْتَنِبُوهُ﴾ أي اتركوا الرجس ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ وهذا ترغيب.

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ (٩٦).

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ...﴾ وهذا تهديد وترهيب.

روى الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: حرمت الخمر ثلاث مرات: قدم رسول الله ﷺ المدينة، وهم يشربون الخمر، ويأكلون الميسر، فسألوا رسول الله ﷺ عنهما فأنزل الله ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْتَفِعٌ لِلنَّاسِ وَإِنَّهُمَا آسَاءٌ مِّنْ نَّعْمَاتِ اللَّهِ﴾ [البقرة: 219] فقال الناس: ما حرما علينا، إنما قال ﴿فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْتَفِعٌ لِلنَّاسِ﴾ [البقرة: 219] وكأوا يشربون الخمر حتى كان يوماً من الأيام، صلى رجل من المهاجرين، أم أصحابه في المغرب فخطب في قراءته فأنزل الله آية أغلظ منها ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا

مَا تَقُولُونَ ﴿ [النساء: 43] فكان الناس يشربون حتى يأتي أحدهم الصلاة، وهو مغبن، ثم أنزلت آية أغلظ منها ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْأَسْبَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ...﴾ قالوا انتهينا ربنا.

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلْغُ الْمُبِينُ ﴿٩٢﴾ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَءَامَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾.

لما نزل تحريم الخمر قالوا: كيف بمن كان يشربها قبل أن تحرم؟ فنزلت ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ...﴾ عن عثمان بن عفان يقول: اجتنبوا الخمر، فإنها الخبائث، إنه كان رجل فيمن خلا قبلكم يتعبد ويعتزل الناس فعلقته امرأة غوية، فأرسلت إليه جارتها أن تدعوه لشهادة فدخل معها، فطفقت كلما دخل باباً أغلقته دونه حتى أفضى إلى امرأة وضيفة، عندها غلام وباطية خمر، فقالت: إني والله ما دعوتك لشهادة، ولكن دعوتك لتقع عليّ، أو تقتل هذا الغلام، أو تشرب هذا الخمر، فسقته كأساً، فقال: زيدوني، فلم يرم حتى وقع عليها، وقتل النفس، فاجتنبوا الخمر، فإنها لا تجتمع هي والإيمان أبداً إلا أوشك أحدهما أن يخرج صاحبه. رواه البيهقي، وإسناده صحيح، وله شاهد في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق سرقه حين يسرقها وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن».

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا يَسْأَلُونَكَ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالَهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَن أَعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَعَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾﴾.

﴿يَسْأَلُونَكَ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالَهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ﴾ عن ابن عباس هو الضعيف من الصيد، وصغيره يتلى الله به عباده في إحرامهم، حتى لو شاوروا لتناولوه بأيديهم فنهاهم الله أن يقربوه. وقال مجاهد ﴿تَنَالَهُ أَيْدِيكُمْ﴾ يعني صغار الصيد وفراخه ﴿وَرِمَاحُكُمْ﴾ يعني كباره، وقال مقاتل بن حيان: أنزلت هذه الآية في عمرة الحديبية فكانت الوحش والطير والصيد تغشاهم في رحالهم، لم يروا مثله قط فيما خلا، فنهاهم الله عن فعله، وهم محرمون ﴿لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾ يعني أنه تعالى يبتليهم بالصيد يغشاهم في رحالهم يتمكنون من أخذه بالأيدي والرماح سراً وجهراً لتظهر طاعة من يطيع منهم في سره أو جهره ﴿فَمَن أَعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ أي بعد هذا الإعلام والإنذار والتخويف ﴿فَعَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي لمخالفته أمر الله وشرعه.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرْمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعْمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَذَا بَلِغَ الْكُفْبَةِ أَوْ كَفَرَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ أَوْ عَدْلٌ ذَلِكُمْ صِيَامًا لِّذَوَقٍ وَبِالْأَمْرِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَن عَادَ فَيَنْقِمِ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٩٥﴾﴾.

وهذا تحريم منه تعالى لقتل الصيد في حال الإحرام، ونهي عن تعاطيه فيه، وهذا إنما يتناول من حيث المعنى المأكول، ولو ما تولد منه ومن غيره، فأما غير المأكول من حيوانات البر فعند الشافعي يجوز للمحرم قتلها، والجمهور على تحريم قتلها أيضاً، ولا يستثنى من ذلك إلا ما ثبت في الصحيحين عن عائشة أم المؤمنين أن رسول الله ﷺ قال: «خمس فواسق يقتلن في الحل والحرم: الغراب، والحدأة، والعقرب، والفأرة، والكلب العقور» قال أيوب: فقلت لنافع: فالحية؟ قال: الحية لا شك فيها، ولا يختلف في قتلها، ومن العلماء من ألحق بالكلب العقور الذئب والسيب والنمر والفهد، لأنها أشد ضرراً منه والله أعلم. وقوله: ﴿وَمَنْ قَتَلَ مِنْكُمْ مَتَعِدًا فَجَزَاءً مِثْلَ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعْمِ﴾ الذي عليه الجمهور أن العامد والناسي سواء في وجوب الجزاء عليه، وقال الزهري: دل الكتاب على العامد، وجرت السنة على الناسي. ومعنى هذا أن القرآن دل على وجوب الجزاء على المتعمد وعلى تائيمه بقوله: ﴿لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَنَّا سَلَفًا وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمْ اللَّهُ مِنْهُ﴾ وجاءت السنة من أحكام النبي ﷺ وأحكام أصحابه بوجوب الجزاء في الخطأ، كما دل الكتاب عليه في العمد، وأيضاً فإن قتل الصيد إتلاف، والإتلاف مضمون في العمد وفي النسيان، لكن المتعمد مأثوم والمخطيء غير ملوم. وقوله: ﴿فَجَزَاءً مِثْلَ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعْمِ﴾ في الآية دليل لما ذهب إليه مالك والشافعي وأحمد والجمهور من وجوب الجزاء من مثل ما قتله المحرم إذا كان له مثل من الحيوان الإنسي خلافاً لأبي حنيفة رحمه الله حيث أوجب القيمة سواء كان الصيد المقتول مثلياً، أو غير مثلي. قال: وهو مخير إن شاء تصدق بثمنه، وإن شاء اشترى به هدياً، والذي حكم به الصحابة في المثل أولى بالاتباع، فإنهم حكموا في النعامة ببذنة، وفي بقرة الوحش ببقرة، وفي الغزال بعنز. وقوله ﴿يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ يعني أنه يحكم بالجزاء في المثل، أو بالقيمة في غير المثل عدلان من المسلمين. وقوله: ﴿هَدْيًا بَلِغَ الْكَمْبَةِ﴾ أي واصلاً إلى الكعبة، والمراد وصوله إلى الحرم بأن يذبح هناك، ويفرق لحمه على مساكين الحرم، وهذا أمر متفق عليه في هذه الصورة. ﴿أَوْ كَثْرَةً طَعَامٍ مَسْكِينٍ أَوْ عَدْلَ ذَلِكَ صِيَامًا﴾ أي إذا لم يجد المحرم مثل ما قتل من النعم، أو لم يكن الصيد المقتول من ذوات الأمثال، أو قلنا بالتخيير في هذا المقام بين الجزاء والإطعام والصيام، كما هو قول مالك وأبي حنيفة وأبي يوسف ومحمد وأحد قولي الشافعي، والمشهور عن أحمد رحمهم الله لظاهر (أو) بأنها للتخيير، والقول الآخر أنها على الترتيب، فصورة ذلك أن يعدل إلى القيمة، فيقوم الصيد المقتول عند مالك وأبي حنيفة وأصحابه، وقال الشافعي: يقوم مثله من النعم لو كان موجوداً ثم يشتري به طعام فيتصدق به فيصرف لكل مسكين مد منه عند الشافعي ومالك وفقهاء الحجاز. وقال أبو حنيفة وأصحابه يطعم كل مسكين مدين. واختلفوا في المكان الذي أصاب فيه الصيد، فقال الشافعي: مكانه الحرم، وقال مالك: يطعم في المكان الذي أصاب فيه الصيد، أو أقرب الأماكن إليه، وقال أبو حنيفة: إن شاء أطعم في الحرم، وإن شاء أطعم في غيره. ﴿عَفَا اللَّهُ عَنَّا سَلَفًا﴾ أي في زمان لجاهلية لمن أحسن في الإسلام، واتبع شرع الله، ولم يرتكب المعصية. ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمْ اللَّهُ

مِنَهُ ﴿٩٥﴾ أي ومن فعل ذلك بعد تحريمه في الإسلام وبلوغ الحكم الشرعي إليه ﴿فَيَنْقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ والله منيع في سلطانه لا يقهره قاهر، ولا يمنعه من الانتقام ممن انتقم منه، ولا من عقوبة من أراد عقوبته مانع، لأن الخلق خلقه والأمر أمره، له العزة والمنعة. وقوله ﴿ذُو انْتِقَامٍ﴾ يعني أنه ذو معاقبة لمن عصاه على معصيته إياه.

﴿أَجَلٌ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُم مَّتَعًا لَكُمْ وَاللَّسْيَارَ وَحَرَمَ عَلَيْكُمْ صَيْدَ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرَمًا وَأَتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ ﴿٩٦﴾ .

﴿أَجَلٌ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ﴾ أي ما يصطاد منه طرياً. ﴿وَطَعَامُهُم﴾ ما لفظه ميتاً، أو كل ما فيه ﴿وَاللَّسْيَارَ﴾ وهم جمع سيار، لمن كان بحضرة البحر والسفر وقد استدل الجمهور على حل ميتته بهذه الآية الكريمة ﴿وَحَرَمَ عَلَيْكُمْ صَيْدَ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرَمًا﴾ أي في حال إحرامكم يحرم عليكم الاضطباد، ففيه دلالة على تحريم ذلك.

﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَمًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ذَلِكَ لِيَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ يَكُلُّ شَيْءًا عَلَيْهِ﴾ ﴿٩٧﴾ ﴿أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿٩٨﴾ ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلْغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ ﴿٩٩﴾ .

لم يتعرض ابن كثير لتفسير هذه الآيات الثلاث.

﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَأُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ﴿١٠٠﴾ .

يقول تعالى لرسوله ﷺ ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ﴾ أي يا أيها الإنسان ﴿كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ يعني أن القليل الحلال النافع خير من الكثير الحرام الضار كما جاء في الحديث «ما قل وكفى خير مما كثر وألهى» وعن أبي أمامة أن ثعلبة بن حاطب الأنصاري قال: يا رسول الله، ادع الله أن يرزقني مالاً، فقال النبي ﷺ: «قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه»، ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ أي يا ذوي العقول الصحيحة المستقيمة، وتجنبوا الحرام، ودعوه، واقتنوا بالحلال واكتفوا به ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي في الدنيا والآخرة.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ بُدِّ لَكُمْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْءَانُ بُدِّ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ عَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ ﴿١٠١﴾ .

هذا تأديب من الله تعالى لعباده المؤمنين، ونهي لهم عن أن يسألوا عن أشياء مما لا فائدة لهم في السؤال والتنقيب عنها، لأنها إن ظهرت لهم تلك الأمور ربما ساءتهم، وشق عليهم سماعها، كما

جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «لا يبلغني أحد عن أحد شيئاً، إني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر» عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ سأله حتى أحفوه بالمسألة، فخرج عليهم ذات يوم فصعد المنبر، فقال: «لا تسألوني اليوم عن شيء! إلا بيته لكم» فأشفق أصحاب رسول الله ﷺ أن يكون بين يدي أمر قد حضر، فجعلت لا ألتفت يمينا ولا شمالاً إلا وجدت كلاً لافاً رأسه في ثوبه يبكي فأنشأ رجل كان يلاحى، فيدعى إلى غير أبيه، فقال: يا نبي الله، من أبي؟ قال: «أبوك حذافة» قال: ثم قام عمر، أو قال: فأنشأ عمر، فقال: رضينا بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولاً، عائداً بالله، أو قال: أعوذ بالله من شر الفتن، قال: وقال رسول الله ﷺ: «لم أر في الخير والشر كالיום قط، صورت لي الجنة والنار حتى رأيتهما دون الحائط» أخرجاه من طريق سعيد، قال الزهري: فقالت أم عبد الله بن حذافة: ما رأيت ولدأ أعق منك قط، أكنت تأمن أن تكون أمك قد قارفت ما قارف أهل الجاهلية، فتفضحها على رؤوس الناس، فقال: والله لو ألحقني بعبد أسود للحقته. ﴿وَإِنْ سَأَلْتُمْ عَنِهَا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَتُبَدَّلْ لَكُمْ﴾ أي وإن تسألوا عن هذه الأشياء التي نهيتهم عن السؤال عنها حين ينزل الوحي على رسول الله ﷺ تبيين لكم ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْهَا﴾ أي عما كان منكم قبل ذلك. وفي الحديث الصحيح «ذروني ما تركتكم، فإنما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم، واختلافهم على أنبيائهم» وفي الحديث الصحيح أيضاً «إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها، وحد حدوداً فلا تعتدوها، وحرم أشياء فلا تنتهكوها، وسكت عن أشياء رحمة بكم غير نسيان فلا تسألوا عنها».

﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴾ (١٧٢)

أي قد سأل هذه المسائل المنهي عنها قوم من قبلكم فأجيبوا عنها، ثم لم يؤمنوا بها فأصبحوا بها كافرين، أي بسببها، أي بينت لهم فلم ينتفعوا بها، لأنهم لم يسألوا على وجه الاسترشاد، بل على وجه استهزاء والعناد. عن ابن عباس في الآية أن رسول الله ﷺ أذن في الناس فقال: «يا قوم كتب عليكم الحج» فقام رجل من بني أسد فقال يا رسول الله. أفي كل عام؟ فأغضب رسول الله ﷺ غضباً شديداً فقال: «والذي نفسي بيده، لو قلت: نعم لوجبت، ولو وجبت ما استطعتم، وإذا لكفرتكم، فاتركوني ما تركتكم، وإذا أمرتكم بشيء فافعلوا، وإذا نهيتكم عن شيء فانتهوا عنه» فأنزل الله هذه الآية، نهاهم أن يسألوا عن مثل الذي سألت عنه النصاري من المائدة فأصبحوا بها كافرين، فنهى الله عن ذلك، وقال: لا تسألوا عن أشياء إن نزل القرآن فيها بتغليظ ساءكم ذلك، ولكن انتظروا، فإذا نزل القرآن فإنكم لا تسألون عن شيء إلا وجدتم بيانه. رواه ابن جرير.

﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامِرٍ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَرَّهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (١٧٣)

في البخاري عن سعيد بن المسيب قال: البحيرة: التي يمنع درها للطواغيت، فلا يحلبها أحد من

الناس. والسائبة: كانوا يسيبونها لألهتهم، لا يحمل عليها شيء، قال: وقال أبو هريرة قال رسول الله ﷺ: «رأيت عمرو بن عامر الخزاعي يجر قصبه في النار، كان أول من سيب السوائب» والوصيلة: الناقة البكر، ت بكر في أول نتاج الإبل، ثم تشني بعد بأنتى، وكانوا يسيبونها لظواغيتهم إن وصلت إحدهما بالأخرى ليس بينهما ذكر، والحام: فحل الإبل يضرب الضراب المعدود، فإذا قضى ضرابه ودعوه للظواغيت، وأعفوه عن الحمل، فلم يحمل عليه شيء، وسموه الحامي» وكذا رواه مسلم والنسائي. ﴿وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا...﴾ أي ما شرع الله هذه الأشياء ولا هي عنده قرينة، ولكن المشركين افتروا ذلك، وجعلوه شرعاً لهم، وقرينة يتقربون بها إليه، وليس ذلك بحاصل لهم، بل هو وبال عليهم.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَىٰ الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَّلُوا كَانُوا آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ (١١٤).

أي إذا دعوا إلى دين الله وشرعه، وما أوجهه، وترك ما حرمه، قالوا: يكفيننا ما وجدنا عليه الآباء والأجداد من الطرائق والمسالك، قال تعالى: ﴿أَوَّلُوا كَانُوا آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ أي لا يفهمون حقاً، ولا يعرفونه، ولا يهتدون إليه، فكيف يتبعونهم والحالة هذه؟ لا يتبعهم إلا من هو أجهل منهم، وأضل سبيلاً.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فِيمَنِّيْتُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (١١٥).

يقول تعالى أمراً عباده المؤمنين أن يصلحوا أنفسهم، ويفعلوا الخير بجهدهم وطاقاتهم، ومخبراً لهم أنه من أصلح أمره لا يضره فساد من فسد من الناس، سواء كان قريباً منه أو بعيداً. ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ نصب على الاغراء ﴿لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ...﴾ أي فيجازي كل عامل بعمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. وليس فيه دليل على ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إذا كان فعل ذلك ممكناً، روى الإمام أحمد أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قام فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس، إنكم تقرأون هذه الآية ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ...﴾ وإنكم تضعونها في غير موضعها، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الناس إذا رأوا المنكر، ولا يغيرونه يوشك الله عز وجل أن يعمهم بعقابه». وروى الترمذي أن أبا أمية الشعباني قال: أتيت أبا ثعلبة الخشني فقلت له: كيف تصنع في هذه الآية؟ قال: أية آية؟ قلت قول الله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ...﴾ قال: أما والله لقد سألت عنها خبيراً، سئل عنها رسول الله ﷺ فقال: «بل ائتمروا بالمعروف، وتناهوا عن المنكر، حتى إذا رأيت شحاً مطاعاً، وهوى متبعاً، ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك بخاصة نفسك، ودع عنك العوام، فإن من ورائكم أياماً،

الصابر فيهن مثل القابض على الجمر، للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلاً يعملون كعملكم» قال عبد الله بن المبارك وزاد غير عتبة بن أبي حكيم، قيل: يا رسول الله أجر خمسين رجلاً منا أو منهم؟ قال: «بل أجر خمسين منكم» ثم قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب صحيح. وعن ابن مسعود رضي الله عنه، سأله رجل عن قول الله ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ...﴾ فقال: إن هذا ليس بزمانها، إنها اليوم مقبولة، ولكنه قد يوشك أن يأتي زمانها، تأمرون فيصنع بكم كذا وكذا، أو قال: فلا يقبل منكم فحيثئذٍ ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾.

﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا شَهْدَةٌ بَيْنَكُمْ إِذَا حَصَرَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدَلٍ مِّنكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِّنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَبْتَكُمْ مُصِيبَةً الْمَوْتِ تَحْسِبُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيَقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ أَرَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذَا لِينَ الْأَثِيمِينَ﴾ (١١٦).

اشتملت هذه الآية الكريمة على حكم عزيز، قيل: إنه منسوخ، وقال آخرون، وهم الأكثرون فيما قاله ابن جرير: بل هو محكم، ومن ادعى نسخه فعليه البيان. ﴿ذَوَا عَدَلٍ﴾ وصف الاثنيين بأن يكونا عدلين. ﴿مِّنْ غَيْرِكُمْ﴾ من المسلمين، وقيل: من أهل الموصي. ﴿أَوْ آخَرَانِ مِّنْ غَيْرِكُمْ﴾ من غير المسلمين، يعني أهل الكتاب، أو من غير قبيلة الموصي ﴿إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي سافرتم ﴿فَأَصَبْتَكُمْ مُصِيبَةً الْمَوْتِ﴾ وهذان شرطان لجواز استشهاد الذميين عند فقد المؤمنين؛ أن يكون ذلك في سفر، وأن يكون في وصية ﴿تَحْسِبُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ﴾ يعني صلاة العصر، أو صلاة المسلمين، أو صلاة أهل دينهما، والمقصود أن يقام هذان الشاهدان بعد صلاة اجتمع الناس فيها بحضرتهم ﴿فَيَقْسِمَانِ بِاللَّهِ﴾ أي فيحلفان بالله ﴿إِنْ أَرَبْتُمْ﴾ أي إن ظهرت لكم منهما ريبة أنهما خانا، أو غلا فيحلفان حيثئذٍ بالله ﴿لَا نَشْتَرِي بِهِ﴾ أي بأيماننا ﴿ثَمَنًا﴾ أي لا نعتاض عنه بعوض قليل من الدنيا الفانية الزائلة ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ أي ولو كان المشهود عليه قريباً لنا نحايه ﴿وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ﴾ أضافها إلى الله تشريفاً لها، وتعظيماً لأمرها ﴿إِنَّا إِذَا لِينَ الْأَثِيمِينَ﴾ أي إن فعلنا شيئاً من ذلك من تحريف الشهادة أو تبديلها أو تغييرها أو كتمها بالكلية.

﴿فَإِنْ غِبَرَ عَلَىٰ أَنْهَمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَٰئِينَ فَيَقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَدَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذَا لِينَ الظَّالِمِينَ﴾ (١١٧).

فإن اشتهر وظهر وتحقق من الشاهدين الوصيين أنهما خانا، أو غلا شيئاً من المال الموصى به إليهما، وظهر عليهما بذلك ﴿فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا...﴾ أي متى تحقق ذلك بالخبر الصحيح على حياتهما فليقم اثنان من الورثة المستحقين للتركة، وليكونا من أولي من يرث ذلك المال ﴿فَيَقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَدَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا﴾ أي لقولنا: إنهما خانا أحق وأصح وأثبت من شهادتهما المتقدمة ﴿وَمَا

أَعَدَدَيْنَا ﴿ أَي فِيمَا قَلْنَا فِيهِمَا مِنَ الْخِيَانَةِ ﴾ ﴿ إِنَّا إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ أَي إِنْ كُنَّا قَدْ كَذَبْنَا عَلَيْهِمَا، وَهَذَا التَّحْلِيفُ لِلْوَرْتَةِ، وَالرُّجُوعُ إِلَى قَوْلِهِمَا وَالحَالَةَ هَذِهِ.

﴿ ذَلِكَ أَدَّى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَنُ بَعْدَ أَيْمَنِهِمْ ﴾ وَأَنْقَوُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا اللَّهَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿١١٨﴾ .

﴿ ذَلِكَ أَدَّى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا ﴾ أَي شَرْعِيَّةً هَذَا الْحُكْمُ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ الْمَرْضِي مِنْ تَحْلِيفِ الشَّاهِدِينَ الذَّمِينِ أَقْرَبُ إِلَى إِقَامَتِهِمَا الشَّهَادَةَ عَلَى الْوَجْهِ الْمَرْضِي ﴿ أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَنُ بَعْدَ أَيْمَنِهِمْ ﴾ أَي يَكُونُ الْحَاصِلُ لَهُمْ عَلَى الْإِتْيَانِ بِهَا عَلَى وَجْهِهَا هُوَ تَعْظِيمُ الْحَلْفِ بِاللَّهِ، وَمُرَاعَاةُ جَانِبِهِ، وَإِجْلَالُهُ وَالْخَوْفُ مِنَ الْفُضِيحَةِ بَيْنَ النَّاسِ إِنْ رَدَّتِ الْيَمِينَ عَلَى الْوَرْتَةِ فَيَحْلِفُونَ وَيَسْتَحِقُّونَ مَا يَدْعُونَ ﴿ وَأَنْقَوُوا اللَّهَ ﴾ أَي فِي جَمِيعِ أُمُورِكُمْ ﴿ وَاسْمَعُوا ﴾ أَي وَأَطِيعُوا ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ أَي الْخَارِجِينَ عَنِ طَاعَتِهِ وَمَتَابَعَةِ شَرْعِيَّتِهِ.

﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ ﴾ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمَهُ الْغُيُوبِ ﴿١١٩﴾ .

هَذَا إِخْبَارٌ عَمَّا يَخَاطَبُ اللَّهُ بِهِ الْمُرْسَلِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا أُجِيبُوا بِهِ مِنْ أَمْمِهِمُ الَّذِينَ أَرْسَلَهُمْ إِلَيْهِمْ كَمَا قَالَ تَعَالَى ﴿ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴾ ﴿ [الأعراف: 6] وَقَوْلُ الرُّسُلِ ﴿ لَا عِلْمَ لَنَا ﴾ إِنَّمَا قَالُوا ذَلِكَ مِنْ هَوْلِ ذَلِكَ الْيَوْمِ أَوْ قَالُوا ذَلِكَ لِأَنَّهُمْ نَزَلُوا مِنْزَلًا ذَهَلَتْ فِيهِ الْعُقُولُ فَلَمَّا سَأَلُوا قَالُوا ﴿ لَا عِلْمَ لَنَا ﴾ ثُمَّ نَزَلُوا مِنْزَلًا آخَرَ فَشَهِدُوا عَلَى قَوْمِهِمْ. وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: يَقُولُونَ لِلرَّبِّ عِزٌّ وَجَلٌّ: لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا عِلْمُ أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنَّا، وَلَا شَكَّ أَنَّ هَذَا قَوْلٌ حَسَنٌ، وَهُوَ مِنْ بَابِ التَّأْدَبِ مَعَ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ أَي لَا عِلْمَ لَنَا بِالنِّسْبَةِ إِلَى عِلْمِكَ الْمَحِيطِ بِكُلِّ شَيْءٍ، فَحُجَّتْ وَإِنْ كُنَّا أَجْبَنًا وَعَرَفْنَا مِنْ أَجَابِنَا، وَلَكِنْ مِنْهُمْ مَنْ كُنَّا إِنَّمَا نَطَّلِعُ عَلَى ظَاهِرِهِ لَا عِلْمَ لَنَا بِبَاطِنِهِ، وَأَنْتَ الْعَلِيمُ بِكُلِّ شَيْءٍ، الْمَطَّلِعُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَعَلِمْنَا بِالنِّسْبَةِ إِلَى عِلْمِكَ كَلَّا عِلْمُ فَإِنَّكَ ﴿ أَنْتَ عَلَّمَهُ الْغُيُوبِ ﴾.

﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخَلَّقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتَتَّبِعُ الْأَكْشَمَةَ وَالْأَنْزَمَةَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِلَئْسَ بِإِذْنِي فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ ﴿١٢٠﴾ .

يَذْكُرُ اللَّهُ مَا مِنْهُ بِهِ عَلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِمَّا أَجْرَاهُ عَلَى يَدَيْهِ مِنَ الْمَعْجَزَاتِ الْبَاهِرَاتِ، وَخَوَارِقِ الْعَادَاتِ فَقَالَ: ﴿ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ ﴾ أَي فِي خَلْقِي إِيَّاكَ مِنَ الْأُمِّ بِلَا ذِكْرٍ،

وجعلي إياك آية ودلالة قاطعة على كمال قدرتي على الأشياء ﴿وَعَلَىٰ وَاٰلِهٖٓ وَسَلَّمَ﴾ حيث جعلتك لها برهاناً على براءتها مما نسبه الظالمون والجاهلون إليها من الفاحشة ﴿إِذْ أَيْدُتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ وهو جبريل عليه السلام، وجعلتك نبياً داعياً إلى الله في صغرك وكبرك، فأنطقتك في المهد صغيراً، فشهدت ببراءة أمك من كل عيب، واعترفت لي بالعبودية، وأخبرت عن رسالتي إياك، ودعوت إلى عبادتي، ولهذا قال ﴿تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْهَمْدِ وَكَهْلًا﴾ أي تدعو إلى الله في صغرك وكبرك، وضمن ﴿تُكَلِّمُ﴾ تدعو لأن كلامه الناس في كهولته ليس بأمر عجيب ﴿وَإِذْ عَلَّمْنَاكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ أي الخط والفهم ﴿وَالتَّوْرَةَ﴾ وهي المنزلة على موسى بن عمران الكليم ﴿وَإِذْ تَخَلَّقْنَا مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي﴾ أي تصوره وتشكله على هيئة الطائر بإذني لك في ذلك ﴿فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي﴾ أي فتنفخ في تلك الصورة التي شكلتها بإذني لك في ذلك فتكون طيراً ذا روح تطير بإذن الله وخلقه. ﴿وَتُزَيَّنُّ الْأَكْمَامَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي﴾ قد تقدم الكلام عليه في سورة آل عمران بما أغنى عن إعادته ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي﴾ أي تدعوهم فيقومون من قبورهم بإذن الله وقدرته وإرادته ومشيئته ﴿وَإِذْ كَفَفْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ...﴾ أي واذكر نعمتي عليك في كفي إياهم عنك حين جثتهم بالبراهين والحجج القاطعة على نبوتك ورسالتك من الله إليهم فكذبوك واتهموك بأنك ساحر وسعوا في قتلك وصلبك فنجيتك منهم، ورفعتك إلي، وطهرتك من دنسهم، وكفيتك شرهم. وهذا يدل على أن هذا الامتحان كان من الله إليه بعد رفعه إلى السماء، أو يكون هذا الامتحان واقعاً يوم القيامة، وعبر بصيغة الماضي دلالة على وقوعه لا محالة، وهذا من أسرار الغيوب التي اطلع الله عليها نبيه محمداً ﷺ.

﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ .  
وهذا أيضاً من الامتحان عليه، عليه السلام بأن جعل له أصحاباً وأنصاراً، ثم قيل: إن المراد بهذا الوحي وحي إلهام كما قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أُمْرًا مِّن مَّوَدَّاتِنَا أَنْ أَرْضِعِيَّهُ﴾ [القصص: 7] وهو وحي إلهام بلا خلاف، وكما قال تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ [النحل: 68] وهكذا قال بعض السلف في هذه الآية، ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ...﴾ أي ألهموا ذلك فامتثلوا ما ألهموا، ويحتمل أن يكون المراد وإذ أوحيت إليهم بواسطة فدعوتهم إلى الإيمان بالله ورسوله، واستجابوا لك، وانقادوا، وتابعوك فقالوا: ﴿آمَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ .

﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَعْيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ أَتَقُو اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ .

هذه قصة المائدة، وإليها تنسب السورة، فيقال: سورة المائدة، وهي مما امتن الله به على عبده ورسوله عيسى ابن مريم لما أجاب دعاءه بنزولها، فأنزل الله آية باهرة، وحجة قاطعة، وقد ذكر بعض الأئمة أن قصتها ليست المذكورة في الإنجيل ولا يعرفها النصارى إلا من المسلمين فانه أعلم.

﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ﴾ وهم أتباع عيسى ﷺ ﴿يَعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ والمائدة هي الخوان عليه طعام، وذكر بعضهم أنهم إنما سألوا ذلك لحاجتهم وفقيرهم فسألوه أن ينزل عليهم مائدة كل يوم يقتاتون منها، ويتقون بها على العبادة ﴿قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّكُمْ مُمِئِينَ﴾ أي فأجابهم المسيح ﷺ قائلاً لهم اتقوا الله، ولا تسألوا هذا فعساه أن يكون فتنة لكم، وتوكلوا على الله في طلب الرزق إن كنتم مؤمنين .

﴿قَالُوا زَيْدٌ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمِئِنَّ قُلُوبُنَا وَتَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَتَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ (١١٣) .

﴿قَالُوا زَيْدٌ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا﴾ أي نحن محتاجون إلى الأكل منها ﴿وَتَطْمِئِنَّ قُلُوبُنَا﴾ إذا شاهدنا نزولها رزقاً لنا من السماء ﴿وَتَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا﴾ أي ونزداد إيماناً بك، وعلماً برسالتك ﴿وَتَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ أي ونشهد أنها آية من عند الله، ودلالة وحجة على نبوتك وصدق ما جئت به .

﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ (١١٤) .

﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا﴾ قال السدي: أي نتخذ ذلك اليوم الذي نزلت فيه عيداً نعظمه نحن ومن بعدنا، وقال سفيان الثوري: يوماً نصلي فيه، وعن سلمان الفارسي: عظة لنا ولمن بعدنا ﴿وَآيَةً مِنْكَ﴾ أي دليلاً تنصبه على قدرتك على الأشياء، وعلى إجابتك لدعوتي، فيصدقيني فيما أبلغه عنك ﴿وَارْزُقْنَا﴾ أي من عندك رزقاً هنيئاً بلا كلفة ولا تعب .

﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ (١١٥) .

﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ﴾ أي فمن كذب بها من أمتك يا عيسى وعاندها ﴿فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ أي من عالمي زمانكم .

﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ مَا أَنْتَ قُلْتُ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ﴾ (١١٦) .

هذا أيضاً مما يخاطب الله عبده ورسوله عيسى ابن مريم ﷺ قائلاً له يوم القيامة بحضرة من اتخذه وأمه إلهين من دون الله ﴿يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ مَا أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ وهذا تهديد للنصارى وتوبيخ وتقريع على رؤوس الأشهاد، ﴿سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ هذا توفيق للأدب في الجواب الكامل ﴿إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ﴾ أي إن كان صدر مني هذا فقد

علمته يا رب، فإنه لا يخفى عليك شيء، فما قلته، ولا أردته لنفسي، ولا أضمرته، ولهذا قال:

﴿تَعَلَّمْ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ...﴾ .

﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾﴾ .

﴿مَا أَمَرْتَنِي بِهِ﴾ أي بإبلاغه ﴿أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ أي ما دعوتهم إلا إلى الذي أرسلتني به، وأمرتني بإبلاغه ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ أي كنت أشهد على أعمالهم حين كنت بين أظهرهم ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ...﴾ عن ابن عباس قال: قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة فقال: «أيها الناس، إنكم محشورون إلى الله عز وجل حفاة عراة غرلاً ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُمْ﴾ [الأنبياء: 104] وإن أول الخلائق يكن يوم القيامة إبراهيم، ألا وإنه يجاء برجال من أمتي فيؤخذ بهم ذات الشمال، فأقول: أصحابي، فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فأقول كما قال العبد الصالح ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾﴾ إن تعدبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴿١١٨﴾ . فيقال: إن هؤلاء لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم» رواه أبو داود الطيالسي، ورواه البخاري عند هذه الآية.

﴿إِنْ تَعَدَّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ .

﴿إِنْ تَعَدَّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ...﴾ هذا الكلام يتضمن رد المشيئة إلى الله عز وجل، فإنه الفعال لما يشاء الذي لا يسأل عما يفعل وهم يسألون، ويتضمن التبري من النصارى الذين كذبوا على الله وعلى رسوله، وجعلوا له أنداداً وصاحبة وولداً، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً. وهذه الآية لها شأن عظيم ونباً عجيب، وقد ورد في الحديث أن النبي ﷺ قام بها ليلة حتى الصباح يردددها. روى الإمام أحمد عن أبي ذر رضي الله عنه قال: صلى النبي ﷺ ذات ليلة فقرأ بآية حتى أصبح يركع بها، ويسجد بها ﴿إِنْ تَعَدَّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ...﴾ فلما أصبح قلت: يا رسول الله ما زلت تقرأ هذه الآية حتى أصبحت تركع بها وتسجد بها؟ قال: «إني سألت ربي عز وجل الشفاعة لأمتي فأعطانيها، وهي نائلة إن شاء الله لمن لا يشرك بالله شيئاً» .

﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾﴾ .

يقول تعالى مجيباً لعبده ورسوله عيسى ابن مريم ﷺ فيما أنجاه إليه من التبري من النصارى الملحدين الكاذبين على الله وعلى رسوله، ومن رد المشيئة فيهم إلى ربه عز وجل، فعند ذلك يقول: ﴿هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ أي يوم ينفع الموحدين توحيدهم ﴿لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ أي ماكين فيها، لا يحولون ولا يزولون، رضي الله عنهم ورضوا عنه، كما

قال تعالى ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: 72] روى ابن أبي حاتم عن أنس مرفوعاً قال: قال رسول الله ﷺ: «ثم يتجلى لهم الرب جل جلاله فيقول: سلوني سلوني أعطكم قال: فيسألونه الرضا، فيقول: رضاي، أحلكم داري، وأنيلكم كرامتي، فسلوني أعطكم، فيسألونه الرضا، قال: فيشهدهم أنه قد رضي عنهم سبحانه وتعالى ﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ أي هذا الفوز الكبير الذي لا أعظم منه كما قال تعالى: ﴿لِيُنْزِلَ هَذَا فَيَلْعَمَ الْعَمِلُونَ﴾ [الصفات: 61] وكما قال: ﴿وَرَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [ص: 26].

﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ﴾ أي هو الخالق للأشياء المالك لها، المتصرف فيها، القادر عليها، فالجميع ملكه، وتحت قهره وقدرته وفي مشيئته، فلا نظير له، ولا وزير ولا عدل ولا والد ولا ولد ولا صاحبة، ولا إله غيره ولا رب سواه. عن عبد الله بن عمر قال: آخر سورة نزلت سورة المائة.

## تفسير سورة الأنعام

عن جابر قال: لما نزلت سورة الأنعام سبح رسول الله ﷺ، ثم قال: «لقد شيع هذه السورة من الملائكة ما سد الأفق» قال الحاكم في مستدرکه: صحيح على شرط مسلم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾.

يقول تعالى مادحاً نفسه الكريمة، وحامداً لها على خلقه السموات والأرض قراراً لعباده، وجعل الظلمات والنور منفعة لعباده في ليلهم ونهارهم، فجمع لفظ الظلمات، ووحد لفظ النور لكونه أشرف، كقوله: ﴿عَنِ الظُّلُمَاتِ وَنُورٍ﴾ [ق: 17] وقوله: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ أي ومع هذا كله كفر بعض عباده، وجعلوا له شريكاً وعدلاً، واتخذوا له صاحبة وولداً. تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِن طِينٍ﴾ يعني أباهم الذي هو أصلهم ومنه خرجوا فانتشروا في المشارق والمغارب ﴿ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا﴾ يعني الموت ﴿وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ﴾ يعني الآخرة ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ تشكون في أمر الساعة.